نحو رؤية موضوعية للتربية في التراث الإسلامي

دراسة تحليلية نقدية

الدكتور محمود قمبر*

تمهيد

ظهرت منذ خمسين سنة كتابات كثيرة تتناول هذا التراث سواء في كليته العامة أو في بعض جوانبه ومفرداته، وذلك لمسايرة حركة إحياء التراث وتجلية الخصوصية الحضارية لأمة لها تاريخ وماض وأمجاد، ولدرء أخطار ما يسمي بالغزو الثقافي أو الاستلاب والتبعية للحضارة الغربية، التي تفاقم أمرها بشكل أصبح يهدد هويتنا الذاتية حتى في أخص ما تتميز به عقيدة وأخلاقاً.

هذه الكتابات برغم مبرراتها المشروعة تعيبها سلبيات تفقدها قيمتها العلمية وأصالتها المنهجية، وبالذات إذا ما تجاوزت طبيعتها "المونولوجية" وخرجت من إطار الاستهلاك المحلي، ووضعت على صعيد البحث المقارن، أو قدمت في الخارج للأمم المتحضرة بلغاتها العالمية.

أولاً :نماذج من سلبيات التأليف في التراث التربوي الإسلامي

1- اغتيال الموصوف:

في عبارة صائبة لأحد المفكرين: " عندنا – نحن العرب- فإن الصفة تأكل الموصوف "كقولنا، الأمة العربية، الديمقراطية الشعبية، المجتمع الاشتراكي."[1] وقياساً على ذلك قولنا "التربية الإسلامية".

---

* أستاذ أصول التربية بالجامعات العربية.

1 مرقص، إلياس. نقد العقلانية العربية، دمشق: دار الحصاد، 1997، ص89.

– بعضهم اختزلها في "تربية دينية" وجعل الصفة "الإسلامية" مرادفة للدينية. وقد خرجت بالفعل كتب خاصة بمناهج هذه التربية محتوى معرفياً وأسلوباً تدريسياً. وهي كتب مرجعية متداولة في كليات ومعاهد التربية التي تؤهل المعلمين لتدريس الدين قرآنا وحديثاً وفقهاً وسيراً في عقيدته وعباداته وقيمه.

وينسى هؤلاء أن التربية الدينية مجال نوعي يتكامل مع مجالات نوعية أخرى لتربية عامة اتسعت باتساع الحياة في المجتمعات الإسلامية، وتنتظم في داخلها تربيات علمية وطبيعية واجتماعية وأدبية وفنية ورياضية وتقنية وعملية وعسكرية. مع تدريس الدين في المساجد والمدارس لتخريج أصحاب الوظائف الدينية، كانت تدرس علوم وتقنيات لتأهيل الأطباء في المشافي، والفلكيين في المراصد، والكُتَّاب في الدواوين، والعلميين في المعامل، والمهندسين في المشاغل، والعسكريين في ثكنات الجيش وساحات التدريب، والحرفيين في كافة التخصصات.

–وبعضهم– في إطار التربية الدينية– قصرها على تربية القرآن والسنة، وكل ما فكر فيه البشر أو صنعوه باجتهادهم لا يدخل في بنية هذه التربية ولا يكتسب صفتها. وهكذا فرقوا بين ما سموه "بتربية الإسلام" وما سموه "بتربية المسلمين." ولا نفهم سر هذا الربط بالقرآن والسنة، ولم نر فيهما نصوصاً كاملة وشاملة كونت بنية معرفية، وشكلت حركة عملية ملتزمة حرفياً بهذه النصوص الدينية ؟! وإننا لا نعرف ما الحد الفاصل بين تربية الإسلام وتربية المسلمين. ولا نعرف كيف مارس الإسلام تربيته المستقلة بدون مسلمين وخارج فكرهم وفوق اجتهادهم ومستغنياً عن مهارات عملهم؟

–وبعضهم وصفها بأنها تربية النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، وآخرون توسعوا قليلاً وجعلوها تربية القرن الأول الهجري، ولعله في عرفهم القرن المثالي الذي التزم حرفياً بمبادئ الإسلام، مستندين إلى أحاديث نبوية منها: "خير القرون قرني– لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه"[2] ونسوا في المقابل أحاديث أخرى، منها " أمتي كالمطر لا يدري أنفعه أوله أم آخره."[3]

---

[2] الشوآاني، محمد بن على. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، جدة: ورثة الشيخ محمد نصيف، 1380هـ، ص287 – من آلام الحسن البصري.

[3] موسوعة السنة: الكتب الستة وشروحها: سنن الترمذي، ج/ 5، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، ط 2، تونس: دار سحنون و إسطنبول: دار الدعوة، 1992، ص152، باب 81، حديث رقم 2869.

وعندنا فالتربية الإسلامية التي نكتب عنها ليست مرادفة للتربية الدينية، وليست تربية لفظية تحددت وتبلورت في نصوص أو كلمات، وليست تربية لحظية ظهرت ثم انتهت في ومضَات وأصبحت منذ ولادتها في ذمة التاريخ.

إنها التربية التي تعددت مصادرها وأشكالها وأنواعها وأساليبها، واشتغلت بها مجتمعات إسلامية في عصور حياتها المتقلبة وعند أجناس عربية وفارسية وتركية وهندية وبربرية كونت ولا تزال تكون ما يعرف بالأمة الإسلامية.

2- إسقاط التاريخ:

وكما اغتالوا الموصوف فإنهم أسقطوا التاريخ الذي صاحب التربية -زماناً ومكاناً- وما عبرت عنه من فلسفات وسياسات وحاجات، وما كان لها من وقائع وأحداث، وما أصابها من تطور أو تدهور. إنها كتابات تجري في امتداد فضائي مفتوح لا يعرف التاريخ ولا الجغرافيا، يختلط فيها الشرقي بالغربي، والأول السابق بالآخر اللاحق، وتعبر عن أفكار مجردة مخلوعة من سياقاتها وكأنها قائمة بذاتها وصالحة لتطبيقها في كل زمان ومكان.

إنها تربية ولدت كاملة وناضجة ومحكمة لأنها تربية الإسلام كما حددها القرآن وبينتها السنة، وليست بحاجة إلي تعديل أو تطوير، فالله صاغها وألزم بها نبيه، وتكونت بها خير أمة أخرجت للناس. وأوّلوا النصوص لتثبيت معنى الكمال بالشكل الذي يغتال فعل البشر في التاريخ. وكل ما جاءت به التربية الحديثة له سوابق وشواهد أعظم وأغني في التربية الإسلامية، وإذن فالمطلوب هو العودة إلى الأصول وإهمال ما جاء به تاريخ التقدم في العلم والحضارة. وسوف نبين في سياقات كثيرة بطول صفحات هذه الدراسة خطأ هذا الاعتقاد، لأن التراث التربوي الإسلامي - كأي تراث حي- خضع لسنة التطور ومشي مع التاريخ الذي سيَّر —وسيرته- الحياة والناس.

وبالمثل فإنهم أعدموا الجغرافيا وأسقطوا المكان. فالتربية واحدة في كل جنبات العالم الإسلامي لأن الدين واحد، بكل مبادئه وقيمه وتعاليمه. ولا تختلف عندهم تربية خراسان وبخارى وأصفهان عن تربية قرطبة وفاس والقيروان، ولم يفطنوا إلى ملاحظات صائبة للرحالة من المسلمين وصفوا فيها وقائع الاختلاف والتمايز. كما أغفلوا حقيقة التنوع التربوي بتنوع الجماعات في مذاهب سنية وشيعية وفي طرائق صوفية، وفي مطالب تعليمية متباينة لها أغراض ومناهج وأساليب متعددة. وأهملوا كل تأثير إيجابي أو سلبي للحضارة في تقدمها وتخلفها حتى إن أهل حلب ظلوا خمسين سنة

-بعد نكبتها في 518هـ على أيدي الفرنج الذين خربوها- بلا تعليم لأنهم فقدوا المعلمين، ولم يجدوا إلا حائكاً كان عنده شيء من النحو فأرسلوا إليه بعض أولادهم."[4]

إن معلمي الصغار في بغداد إبان ازدهارها الحضاري كانوا أشبه بالعلماء وربما كان الواحد منهم "فقيهاً وأديباً وعروضياً ونحوياً" بلغة ابن عتاب ت/243هـ[5] مما يجعلهم على النقيض من زملاء لهم في صقلية " أصحاب عقول صدئة وفطن حمئة" بلغة ابن حوقل.

وإن مكاتب الأندلس الأموية التي نشرت المعرفة وثقفت الناس رجالا ونساء حتى ندر أن نجد من بينهم أمياً واحداً كما أقر بذلك المستشرق الهولندي دوزي، تحولت في عصور الظلام والانحطاط إلى "منابت للجهل" كما وصفها الشيخ محمد عبده في مصر.[6]

3- ابتذال المنهج:

وبالمثل فإن هذه الكتابات في أكثريتها الغالبة، قد ابتذلت المناهج البحثية المعروفة في حقل التربية والتي تعلمناها من الغربيين في نوعياتها التاريخية والوصفية والتجريبية والإكلينيكية.

بخصوص منهجية البحث التاريخي نجد أن بعض كتابات الإسلاميين لم تحتكم إليها ولم تنقب في المصادر التاريخية بأساليب تحليلية ونقدية. لقد وقفت عند حدود الكليات المطلقة دون ربط بين الفكر والواقع، النظرية والتطبيق، المبدأ وممارساته، وخرجت بها لغة خطابية إنشائية تغلب عليها التحيزات الذاتية والتمجيدات العاطفية. ومادتها نصوص عامة محفوظة ومأثورة ومكررة، وتستخدم لغة دينية ذات طبيعة رمزية أو مجازية أو تأويلية بعيدة عن مفاهيم العلم ومصطلحاته وحقائقه وتحديداته، وتجعل منها لغة الكشف العلمي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

- فذكر الله مقو للحفظ وطارد للنسيان أخذاً بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (الكهف: 24).

---

[4] السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج/ 3، القاهرة: مطبعة الحلبي، 1965، ص243 – هذا الحائك هو " فتيان أبو السخاء" أخذوا عنه النحو.

[5] المرجع السابق، ح/ 1، ص457.

[6] قمبر، محمود. مع التراث العربي الإسلامي في نشأته وتطوره وإحيائه، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1983، ص55.

– واليقين لا تأتي به تجارب تدعي العلمية والموضوعية وتزعم أن نتائجها ثابتة وصادقة؛ بل حق اليقين ما تأتي به العبادة، لقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ (الحجر: 99).

– وتلاوة القرآن خير مهدئ سيكلوجي للصغار فهم يرتاحون لسماعهما وينامون مع كلماتها في سكينة، ودون مقارنة في تجارب موضوعية بمهدئات أخرى فيزيقية ونفسية واجتماعية.

– والتقوى علاج ناجح لضعاف التحصيل، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ (البقرة: 282).

– وعلم النفس الغربي جاهل بحقائق النفس البشرية والتي نمطها القرآن في ثلاث نفوس متمايزة: مطمئنة، ولوامة، وأمارة بالسوء. كما أنه جاهل بأساليب المداخلات الشيطانية معها. وإذا وجدت كلمات جاءت بها الخواطر المرسلة والأدبيات العامة، كالطبع والميل، والذكاء والملكة أو القدرة، ألبسوها مفاهيم العلم الحديث، وافتخروا بإبداع سلفي إسلامي تقصر دونه إبداعات البحوث الغربية.

ولأنها كتابات تقوم على "الرأيية" opinionate أي آراء شخصية غير مفحوصة ولا مبرهنة فإنها كثيراً ما تدل على سذاجة وسطحية، وتتعارض فيما بينها دون علم أو بينة.

– فدراسة تدعي أن التربية الإسلامية متسقة فكراً وعملاً في البيت والشارع والمسجد والمدرسة، لأنها محكومة بنظريات جاء بها القرآن والسنة. وعندما نتأمل في هذه النظريات المزعومة نجد أنها آراء شخصية لصاحبها يحاول فرضها على القرآن والسنة اقتحاماً واعتسافاً.

– ودراسة ثانية تعارضها بزعم أن الإسلام لا يعرف النظرية لأنه دين عمل لا دين كلام علماً بأن ديوي يري أن "النظرية أكثر الأشياء عملية""Theory is the most practical of all things ".

– ودراسة ثالثة تري أن النظرية التربوية في الإسلام ثابتة لا تتغير لأنها من وضع إلهي، وتعارضها أخرى في استعراض تاريخي لتطور النظرية التربوية ولم يكن إلا استعراضاً ثقافياً عاماً للعلم والتعليم.

– ودراسات متعددة تجعل من كل عالِم إسلامي له إشارات ولو بعيدة عن التربية صاحب نظرية، بل إن إحداها تجعل من ابن عبد ربه في العقد الفريد صاحب نظريات متعددة في التربية.

وهكذا تطنطن الكتابات عن نظريات دون أن تلتزم معرفياً ومنهجياً بتجلية هذه النظريات وأن تقارن بينها وبين غيرها من نظريات عرفتها الفلسفات: المثالية والطبيعية والواقعية أو النفعية والوضعية وغيرها ولم تبين حدود توظيفها إسلامياً، ونتائج تأثيرها عملياً.

وإذا كانت أزمة الفكر العربي هي أزمة منهج فإنها أوضح ما تكون في حقل العلوم الإنسانية الاجتماعية، وبالذات في حقل التربية الإسلامية لبعدها عن التقيد بمنهجية البحث العلمي في صورته الغربية الحديثة.

وفي دراستنا هذه سوف يجد القارئ منهجاً بحثياً غير مألوف في معالجة التراث في التربية الإسلامية، وقد تخلصنا بقدر استطاعتنا من تقاليد البحوث الإسلامية وأخطائها ولا نبالي إذا كان فيها ما يصدم التقليديين، لأن الدين والعلم أولى بالصداقة منهم وأحق بالوفاء.

ثانياً :وضعية القرآن والسنة في التراث:

قبل أن نتكلم عن القرآن والسنة بوصفهما مصدرين ملهمين ومؤثرين في حقل التربية الإسلامية فكراً وعملاً، نحب أن نُبيّن حقيقة وضعيتهما في التراث:

– أكثرية الباحثين يرون أن القرآن سواء كان نصوصاً إلهية قديمة مسجلة في اللوح المحفوظ أو مخلوقة مع التنزيل –عند بعض العقلانيين– فوق التراث وخارجه. والسنة النبوية مكملة ومفسرة ومطبقة لما في القرآن؛ ومن ثم فهي من طبيعته بشكل أو بآخر، لأنها جزء من الوحي لكن اختص به الرسول قولاً أو فعلاً أو تقريراً. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى. إِنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَي﴾ (النجم: 3–4). وهذا الموحى به قرآناً وسنة ثابت أبداً لفظاً ومعنى، لا يخضع لنقد أو تعديل لأنه ليس من قول البشر وفعلهم مما يدخل في صميم التراث.

– ومع ذلك فهناك باحثون يجعلون القرآن والسنة من التراث الإسلامي باعتبار أن للتراث وضعين:

1. التراث كمنتِج (بكسر التاء) أي التراث الأساسي أو الصانع لغيره من عناصر تراثية على سبيل الإلهام أو الاقتداء أو التوليد أو الاجتهاد المرتبط بكلياته ومبادئه والتي تصبح حاكمة وملزمة، ومرجعيات يُحتج بها ويُقاس عليها.

ولهذا كان الشافعي من أئمة أهل السنة، يقول: "كل ما تقوله الأمة شرح للسنة وكل ما تقوله السنة شرح للقرآن." ومثله الكلّيني –في أوساط الشيعة– يقول : "جميع ما يحتاج الناس إليه إلا وقد جاء في كتاب أو سنة."[7]

وحجة هؤلاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم مشارك أول في صنع التراث ويتنزل عليه الوحي يلهمه ويرشده فيما يقول ويفعل. وكان العامري على رأس من يري أن التراث الديني لا ينحصر في ماديات ولكن في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقرآنه، يقول: "الخلفاء اغتبطوا ببردة الرسول وقضيبه، فما الظن بما هو زبدة تراثه عليه الصلاة والسلام."[8]

وأبو هريرة، بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس في السوق للذهاب إلى مسجد رسول الله لاقتسام ميراثه، فلما ذهبوا لم يجدوا غير حلقات العلم الديني في القرآن والسنة وهذا ما خلفه الرسول صلى الله عليه وسلم من ميراث.[9]

واللغة الصانعة للثقافة كأداة خلق وتعبير واتصال، في القرآن والحديث، هي لغة العرب في لهجتها القرشية صاحبة السيادة اللغوية، وإن كان للوحي وجه إعجازي يتحدى اللغويين، فإنه في الوقت نفسه لا يخرج عن أطر وقواعد الخطاب العربي.

2. التراث كمنتَج (بفتح التاء)، أي كمنتج بشري مصنوع سواء ارتبط في جوانب الدين بالقرآن والسنة أو ارتبط في جوانب الحياة البشرية بما أبدعته أجيال المسلمين من علوم وآداب وفنون وصناعات وتنظيمات عرفتها حضارة الإسلام.

وهذا التراث المصنوع بعكس التراث الصانع، هو الذي تجري عليه أحكام التقويم والتطوير ولا دخل للقرآن والسنة فيه إلا بقدر ما يضمن سلامة التوجه بحسب تعاليم الدين وآدابه.

ومع ذلك فهناك من المسلمين فقهاء وباحثون يعطون لأنفسهم الجرأة على اتخاذ موقف نظري وعملي من نصوص القرآن والسنة، ويرون في اجتهاد عمر بن الخطاب في تكييف النص الديني بما تقتضيه مصلحة المسلمين مثالاً

---

7 الكليني، الكافي، ج/ 1، طهران: مكتبة الصدق، 1381 هـ، ص59.

8 العامري، أبو الحسن محمد. آتاب الإعلام بمناقب الإسلام، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967، ص ص122 113.

9 العبدري، ابن الحاج. المدخل، ج/ 1، بيروت: دار الكتاب العربي، ط/2، 1972، ص82.

يُحتذى به، وأخذاً بالقاعدة الأصولية "تنزيل النص على الواقع." فالنصوص المتناهية لا يمكن أن تحكم بحرفية وتزمت وقائع الحياة المتجددة واللا متناهية "وكل ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن."

وخارج هذه الجدلية الشكلية فإن النصوص في القرآن والحديث لم تكن بمعزل عن التناول البشري، فهي قد صيغت وتنزلت في سياقات اجتماعية وتاريخية وتفاعل معها الناس فهماً وتفسيراً وتطبيقاً، ولم تكن لتفعل فعلها إلا في واقع حياة المسلمين الذين تمثلوها فلسفات وحولوها إلى سياسات ونظم ولذلك اختلفوا جماعات في مناهج البحث والنظر.

– منهم أصحاب المنهج النقلي المتقيدون بدلالة النص اللغوية الصريحة والواضحة كالحشوية والظاهرية.

– ومنهم أصحاب المنهج العقلي الذين يربطون الدلالة باجتهادات العقل واعتبارات المصلحة كالمعتزلة والفلاسفة.

– ومنهم أصحاب المنهج التأويلي الذين يرون الباطن من وراء الظاهر، ويقدمون مغزى الإشارة على صريح العبارة كالصوفية والإسماعيلية.

وهذه المناهج – خارج إطار المنهج العلمي التجريبي في وقائع الحياة المادية أو الطبيعية – مع أصول الوحي أو عناصر التراث المنتج – هي التي صنعت أشكال التراث الإسلامي ومنها التربية.

الدين والعلم في التراث:

جدلية أخرى تثور حول صفة الدين (قرآناً وسنة) في التراث أو وضعيته منه. فريق يرى أن الإسلام ليس كالمسيحية مجرد ديانة روحية لا صلة لها بالعلم في معارفه ولا بالدنيا في سياستها واقتصادها وعمرانها، بل الإسلام دين وعلم وعمل . وفي القرآن كل شيء ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾ (الأنعام: 38) وعلمنا البشري هو جزء ضئيل من علم الله الكلي الشامل والمحيط واللانهائي ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن العِلْمِ إلا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: 85). ومن ثم فإن التربية نظرياً وعملياً لا تجد مرجعيتها إلا في الدين. وتوسع مفهوم العلم فلم يعد مقصوراً على علوم الدين، بل شمل كل العلوم التي كشف الله عنها للبشر.

وحاول الفخر الرازي في تفسيره الكبير "مفاتيح الغيب" أن يبين ما فيه من حقائق علمية تتصل بكل المعارف الإنسانية زاعماً أن سورة الفاتحة وحدها حوت عشرة آلاف مسألة[10] وهو الموقف الذي استنكره المفسرون وقالوا عن تفسيره –كما يذكر السيوطى : "فيه كل شئ إلا التفسير."[11]

ومن جانبه ندد الشاطبي بأصحاب هذا الاتجاه الذي جعل من القرآن موسوعة علمية شاملة ونهائية، فقال: "كثير من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم بذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم (رياضيات) والمنطق وعلم الحروف، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، فالسلف لم يشتغلوا بتلك العلوم بل اهتموا بأحكام التكاليف وأحكام الآخرة، ولو أنهم خاضوا في هذه العلوم لوصلتنا."[12]

ومع التفوق العلمي في الغرب وسيادة ثقافته في جنبات العالم حدث في العالم العربي رد فعل لتأصيل التراث واستعادة حضارة إسلامية كان لها التفوق العالمي والمطلق في الماضي. ونهض من جديد علماء ينسبون إلى القرآن سبقه في كل علم، منهم عبد الحي الكتاني الذي يقرر بأن الصحابة كانوا أساتذة في الشرعيات والعقليات والحسابيات والسياسات، ويكشف عن سبق القرآن بمفهوم الذرة ﴿فَمَن يَعْمَلِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: 7–8) وأن للإحصاء أصلاً فيه ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ (مريم: 94) وكذلك حساب المثلثات ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ﴾ (المرسلات: 30)، والجبر له رموزه في أوائل السور[13] كما وضع الشيخ طنطاوي جوهري تفسيرا للقرآن يحاكي به تفسير الفخر الرازي يثبت فيه إحاطة القرآن بالمفاهيم العلمية.

---

10 الكتاني، عبد الحي. نظام الحكومة النبوية المسمي التراتيب الإدارية، ج، 2، بيروت: حسن جعفا الناشر، 1347هـ، ص183.

11 السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج/ 2، بيروت: المكتبة الثقافية، 1973، ص190 "الإمام الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء حتي يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية. ولذلك قال بعض العلماء: فيه آل شئ إلا التفسير".

12 الشاطبي، أبو إسحاق. الموافقات في أصول الشريعة، ج/ 1، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، (د.ت)، ص55. أهل العدد ادعوا أن مرجعيتهم في قوله تعالي "فاسأل العادين"، وأهل الهندسة في قوله: " أنزلنا من السماء ماء فسالت أودية بقدرها"، وأهل التعديل النجومي في قوله: "الشمس والقمر بحسبان"، وأهل المنطق في أن نقيض الكلية السالبة جزئية موجبة في قوله: (إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ، قل من أنزل الكتاب) إلخ ذلك.

13 الكناني، عبد الحي. مرجع سابق، ص174.

وتعاظم هذا الاتجاه بعد مضي أكثر من قرن إذ تكونت رابطة "الإعجاز العلمي في القرآن"، وتكاثر منتسبوها من دينيين وعلميين، وكل يحاول إبراز ما تضمنه القرآن من حقائق علمية فيزيائية وفلكية وطبية ونباتية وجيولوجية و"غفل المسلمون عنها –بتعبير واحد منهم– ولو تنبهوا لها وعملوا بها لأثبتوا تفوقاً مذهلاً في تاريخ العلم والحضارة."

ونتساءل: ولماذا غفل المسلمون عنها إذا كانت فعلاً مذكورة في القرآن ومكتوبة بلغتهم وصانعة لثقافتهم؟ وهل كانوا دون مستوى الفهم لمضامينها: أم صرفهم الله عنها فلم يكشفها إلا لأمثال هؤلاء المحدثين؟ ولماذا لا يتكلم أولئك المحدثون إلا باللغة العلمية التي يتكلم بها علماء الغرب؟ ولماذا لا يتناولون إلا الحقائق التي كشف عنها الغربيون؟ لماذا لا يسبقونهم والقرآن معهم ويبدعون فيما يجهله الغربيون أنفسهم حتي يثبتوا فعلاً أن القرآن سباق بالعلم وفي كل عصر حتي تقوم الساعة؟

لقد تجاوزوا الحد في الدعوى على القرآن كما قال الشاطبي. نعم إن في القرآن علماً، لكنه علم بالدين، ولذلك سياق آخر، وقد أحصى السيوطي علوم القرآن في خمسة عشر علما، ليس من بينها ما يدعيه أولئك المحدثون.

في القرآن آيات تشير إلي الظواهر في الحياة أو في الطبيعة تحمل دلالات دينية وتدعو إلى الإيمان بالخالق الأعظم المدبر لهذا الكون، وهي ظواهر مألوفة عند من يخاطبهم الله ويعرفون وجودها المادي وأشكالها الظاهرة بالحس والإدراك العام Common sense ولكن يجهلون خصائصها العلمية وقوانينها الحاكمة وعللها الفاعلة، وهذا شيء لم يشأ الله أن يخوض فيه، ليكون القرآن كتاب هداية ودين وليس كتاب علوم، وترك سبحانه للناس مهمة النظر العلمي والتجريب المنهجي، حتى يستنبطوا باجتهادهم قوانين العلم وفنيات استثمارها في نظم الحياة العملية. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون من كل دين وملة.

ومن تكلم من الصحابة في العلم الطبيعي فإنما تكلم برأيه وليس برأي الدين قرآنا وسنة. عندما سئل الصحابي عبد الله بن عباس، وكان يلقب بترجمان القرآن لشهرته في التفسير، عن المد والجزر، أجاب بأن لله ملكاً موكلاً بالبحار إذا وضع قدمه في الماء فاض وإذا رفعها غاض.

ولما سئل عن الرعد والبرق أجاب بأن لله ملكاً موكلاً بالسحاب يسوقه بسوطه، فإذا زجره فذلك هو الرعد وإذ ضربه فذلك هو البرق.[14] كما فسر قوله تعالي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذين كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: 30) بأن السماء كانت رتقا (مسدودة) ففتقها الله بالمطر، والأرض كانت رتقاً ففتقها الله بالنبات"[15] ولم يلهمه الله في قرآنه بالنظرية التي قدمها العلم الغربي الحديث في نشأة الكون والانفجار العظيم Big Bang. فتفسيره هنا لغوي محْض، ويتسق لفظاً ومعنى مع دلالات إيمانية من جهة وثقافة عربية من جهة ثانية. كما أنها مشبعة بخرافات إسرائيلية كان لها شيوع في مجتمع المدينة. إن القدماء لم يتكلموا إلا عن إعجاز لغوي في القرآن وخرجت لهم كتب لتأكيد هذه الحقيقة منها:

الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه، للجاحظ (ت/254هـ).

إعجاز القرآن في نظمه، للواسطي المتكلم المعتزلي (ت/307هـ).

دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني (ت/ 471هـ).

وكما أن القرآن ليس كتاب علم، فالسنة كذلك حجيتها في الدين وليست في العلم. وتجربة تلقيح النخل والتي عدل الرسول صلى الله عليه وسلم عن رأيه فيها، وقال لأهل الخبرة: "ما أبلغكم به عن ربي فخذوه فإنه دين وما كان غير ذلك، فأنتم أعلم بأمور دنياكم"، أعطت للعقلاء درساً بأن للدين مجالاً له معرفته وأساليبه وأهدافه، وأن للعلم مجالاً (له كذلك معرفته وأساليبه وأهدافه)، ولا يصح أن يقحم أحدهما في الآخر. وكما يقول الغزالي: "لايحتج بالدين على العلم"[16] كذلك لا يعمل العلم في الدين بالنقد والتقييم والحذف والإضافة، "فالدين يسلم بالإيمان" أي بالتصديق دون جدل أو خصومة بلغة ابن المقفع، بينما يسلم العلم بالرأي والعقل والتمحيص.[17]

---

14 المقدسي،أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن: مطبعة بريل، ط/ 2، 1906، ص 124.

15 تفسير ابن آثير، م/ 3، ص176-177.

16 ويعلل لذلك الغزالي قائلاً: "من ظن أن إبطال شيء مما يقول العلم هو دفاع عن الدين فقد جنى على الدين" – انظر : زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول، القاهرة: دار الشروق، ط/ 4، 1989، ص321، ص337.
ويقول الأفغاني: " الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية، فإن آان ظاهر المخالفة وجب تأويله" – انظر : أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط/ 4، 1979، ص 122.

17 ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، بيروت: دار صادر، (د.ت)، ص 34 من الأدب الصغير.

وخلاصة ذلك كله أن التربية في معارفها العلمية (سيكلوجية وسسيولوجية وبيداجوجية...الخ) خارج المجال الديني لم يستخرجها الأقدمون ولا يستخرجها المعاصرون من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك تظل للدين تأثيراته ومرجعياته في جوانب فلسفية تتصل بالأهداف وبالقيم في التربية، كما يظل المصدر الأول لتربويات الدعوة، وهي غير تربويات التعليم.

ثالثاً :الدين وتربويات الدعوة:

إن ما حدث من خلط في المفاهيم المتعلقة بالتربية الإسلامية، وما قدم لها من مناهج لا يعترف بها البحث التربوي في طبيعته العلمية على نحو ما رأينا سلفاً، مرجعه إلى عدم التمييز بين نوعين من التعليم، لكل منهما تربويات خاصة به: تربويات دعوة (دينية) وتربويات تعليم (بالمعنى الاصطلاحي). ولعل علامتنا المسلم ابن خلدون هو أول من ميز بينهما بشكل قاطع ومفهوم. كتب في مقدمته قائلاً: "التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك (على نحو ما صار إليه في عصره)، ولم يكن العلم بالجملة صناعة؛ إن ما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ. (فكانوا) يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي"[18] وهذا التعليم الإسلامي الأول لم يكن إلا قسماً من الدعوة، ويختص بالدعوة الداخلية في أوساط المسلمين. وهناك غيرها دعوة خارجية وتختص بغير المسلمين.

والواقع أن مصدري الدين قرآنا وسنة اهتما بتربويات الدعوة هدفاً ومحتوى وطريقة، فالدعوة الخارجية هداية إلى معرفة الله وعبادته كما أمر للفوز بالجزاء الحق في جنات النعيم.﴿والله يَدْعُو إلى دَارِ السَّلامِ...﴾ (يونس: 25). وكان الرسول صلى الله عليه وسلم الداعية الأول. قال تعالي: ﴿وَدَاعِياً إلى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ (الأحزاب: 46)، ﴿وَمَا لَكُم لا تُؤمِنُونَ بِالله وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ (الحديد: 8). ويختص محتوى الدعوة بالتوحيد ونبذ الشرك واتباع ما أنزل الله. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إلا الله وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِن دُونِ الله﴾ (آل عمران: 64). وبيّن القرآن الكريم طريقة الدعوة بجلاء وتمثلها الرسول صلى الله عليه وسلم نهجاً وفعلاً، وهي طريقة تعتمد الحوار والتبليغ، قال تعالي: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَّبِكَ﴾ (المائدة: 67)، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ﴾ (آل عمران: 20) (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى الله عَلَى بَصِيرَةٍ﴾

18 مقدمة ابن خدلون.

(يوسف: 108)، ﴿ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾ (النحل: 125)، ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46)، ﴿وَلا تَسُبُّوا الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّوا الله عَدْوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: 108) ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُم إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 111)، ﴿وإنَّا وَإيَّاكُمْ لَعَلَى هُديً أو فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: 24).

ولنشر الدعوة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لقد هممت أن أبعث إلى الأمم رجالاً يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم في الدين فأبعث فلاناً وفلاناً"،[19] وبدأ بالفعل في إرسال مبعوثين له حاملين رسائل إلى عدد من الملوك والحكام في الأمصار البعيدة، أو حاملين الدعوة لعرضها في الأمصار القريبة، فأرسل مصعب بن عمير إلى يثرب قبل الهجرة، وعلياً بن أبي طالب إلى اليمن وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ من أن يكون لك حُمرُ النَّعَمِ."[20] كما أرسل عبد الله بن مسعود إلى نجران، وأبقي بمكة بعد فتحها معاذ بن جبل لتفقيه أهلها، وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنك غلام معلم."[21]

ورُوي عن أبي بن مالك أنه قال: "لما قدم أهل اليمن على رسول الله سألوه أن يبعث إليهم رجلاً يعلمهم السنة والإسلام، فقال صلى الله عليه وسلم وقد أخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح: "هذا أمين هذه الأمة". ثم جاءه آخرون فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقرأون القرآن ويتدارسونه بالليل ويتعلمون بينما يعملون بالنهار."[22]

والرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه داعية كان معلماً دينياً من طراز خاص، شأنه في ذلك شأن الرسل. يقول الإسفراييني في علم التوحيد: "الرسل وردوا يعلمون الأمم علومه ويدعونهم إلى معرفته ويبينون لهم الطرائق التي توصلهم إلى معرفة أنفسهم ويكشفون عن الأدلة التي تدل على صنع الصانع."[23] وقال تعالى في صفة النبي المعلم: ﴿هُوَ الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنهُم يَتْلُو عَلَيهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمَهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: 2). وقال صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "إنما بعثت معلماً". وبدأ هذه المهمة مع آيات الدعوة كما أسلفنا، ومنها: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما

---

19 الدينوري، ابن قتيبة. الإمامة والسياسة، ج/ 1، القاهرة: الحلبي، 1937، ص2.

20 موسوعة السنة: الكتب الستة وشروحها، صحيح البخاري، ج/ 5، إشراف د. بدر الدين جتين ار، تونس: دار سحنون وإسطنبول: دار الدعوة، ط 2، 1992، ص77، آتاب المغازي، باب رقم 38.

21 الحنبلي، ابن العماد. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م/ 1، بيروت: المكتب التجاري، (د.ت)، ص261.

22 الصديقي، محمد. دليل الصالحين لطرق رياض الصالحين، ج/ 4، القاهرة: الحلبي، 1971، ص121.

23 السكوني، أبو عمر على. عيون المناظرات، تونس: الجامعة التونسية، 1976، ص23.

نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: 44). وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم بيت الدعوة في مكة ثم تابعها النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد قباء ثم في مسجده بالمدينة.[24] وفي حديث عشرة من الصحابة كما روى بعضهم: "كنا نتدارس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا."[25]

وكان الصحابة يلتفون حول الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسجد فيما بين الصلوات يأخذون عنه العلم والدين، كما كانوا فيما بينهم يتدارسون كتاب الله وأحكام دينهم وسنة نبيهم إما في حلقات متفرقة وإما في حلقة جامعة، وقد أمرهم بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم عندما دخل المسجد ذات مرة وكانوا حلقاً، فقال: "مالي أراكم عزِين؟ (أي متفرقين) هلا اجتمعتم في مجلس واحد؟" وكان صلى الله عليه وسلم يبارك حلقة العلم ويقول: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده."[26]

وللرسول صلى الله عليه وسلم في حلقات تعليمه أسلوب إنساني راق: يقرئ أصحابه القرآن كما نزل، موضحاً أحكامه ومفسراً ما غمض من معانيه، ويرشدهم بآداب الإسلام، ويتخولهم الموعظة بعد الموعظة، ويبين لهم عملياً كيف تكون العبادة: في الصلاة يقول: "صلوا كما رأيتموني أصلي" وفي الحج يقول: "خذوا عني مناسككم."[27] لم يعنف أحداً في تعليمه، "فالمعلم خير من المعنف" كما يقول، ولم يضق صدره لأحد، يأتيه الأعرابي بكل خشونة البداوة ويقول يا رسول الله: إني أعرابي جافٍ فعلمني، فيعلمه صلى الله عليه وسلم بكل رفق.[28] ولذا أثنى عليه ربه بقوله تعالى:﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: 159). بل تأتيه امرأة وتسأله عما تفعله إذا احتلمت، فقال لها صلى الله عليه وسلم: "إذا كان منها ما يكون من الرجل فلتغتسل" وقالت لها عائشة رضي الله عنها: فَضَحْت النساء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "مهلاً يا عائشة، لا تمنعي نساء الأنصار يتفقهن

---

24 غنيمة، محمد عبد الرحيم. تاريخ الجامعات الإسلامية الكبري، تطوان: دار الطباعة المغربية، 1953، ص ص 25-26

25 السبكى، طبقات الشافعية الكبري، ج/، 6 289.

26 العبدري، إبن الحاج. مرجع سابق، ج/ 1، ص81-82.

27 موسوعة السنة: الكتب الستة وشروحها، سنن النسائي، ج/ 5، إعداد د. بدر الدين جتين ار، تونس: دار سحنون واسطنبول: دار الدعوة، ط 2، 1992، ص 269، باب الرآوب إلى الجمار واستظلال المحرم (220)، حديث رقم 3060.

28 النصري، الحافظ عبد الرحمن بن صفوان. تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ج/ 1، (تحقيق شكر الله) (د.ت)، ص 312.

في الدين".[29] كما روي عنه قوله: "رحم الله نساء الأنصار يتفقهن في الدين." وكان الصحابة يراجعون الرسول صلى الله عليه وسلم أحياناً فيما يقول، ليس من قبيل الجدل والمعارضة، فالسلف –كما قال الغزالي– ضد "من يفتح باباً من الجدل والمماراة." وإنما كانت المراجعة للحفظ والاستيعاب. عن أنس بن مالك، قال: "كنا قعودا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعسى أن نكون ستين رجلاً فيحدثنا الحديث، ثم نريد الحاجة فنراجعه ستاً، ثم هذا ثم هذا، فنقوم كأنما زرع في قلوبنا.[30]

ونبغ مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة من الصحابة أفتوا وعلموا[31] وقال عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" وهو يقصد بالطبع الخاصة من الصحابة. يقول ابن خلدون: "والصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالقراء"[32] والذين كوّنوا الصف الأول من معلمي الأمة أو دعاتها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم إمامهم الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه. ومن أقواله لهم: "سيأتي أناس من أقطار الأرض يلتمسون العلم فاستوصوا بهم خيراً."[33]

وسرعان ما تكاثر هؤلاء القراء. والقارئ له صفتان: علم يعتد به في الدين (قرآناً وتفسيراً وحديثاً وفقهاً)، وإيمان يعتد به في السلوك قدوة وتأثيراً. فالدعوة ليست تعليماً احترافياً أو ارتزاقياً، ولكنها رسالة وهداية. ولذلك رددوا حديثاً يقول عنه ابن الجوزي إنه موضوع، ونصه "خير من يمشي على الأرض المعلمون الذين كلما خلقَ الدين جددوه."[34]

---

29 البغدادى، الخطيب. آتاب الفقيه والمتفقه م/ 1، بيروت: دار الكتب العلمية، ط/ 2، 1975، ص48.

30 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق،م/ 2،ص ص172-173.

31 الجوزية، ابن قيم أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج/2، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1969، ص12 ويقول الباجي: "بعض الصحابة كان أفضل من بعض وأعلم من بعض". انظر أبو الوليد الباجي إحكام الأصول في أحكام الأصول، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص730 ولقد ميز الرسول صلى الله عليه وسلم بين صحابته قائلاً: "أعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب" وعمر بن الخطاب قال كذلك، انظر:
– الذهبي، تذآرة الحفاظ، ج/ 1، بيروت: دار الفكر العربى، (د.ت)، ص20.
– قمبر، محمود. مع التراث العربي الإسلامي فى نشأته وتطوره وإحيائه،الرياض: مكتب التربية العربى لدول الخليج، 1983 ص 42.

32 مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص446

33 البشرى، موسى بن عيسى. مكنون الخزائن وعيون المعادن، ج/ 1، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1982، ص 12.

34 الشوآانى، محمد بن على. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، جدة: ورثة الشيخ محمد نصيف، 1380 هـ، ص 276: وفى رواية "آلما خلق الذآر جددوه، اعطوهم ولا تستأجروهم فتحرجوهم".

وما كان في الإسلام كان في غيره من الديانات السماوية. فالمسيح عليه السلام علم صحابته وحوارييه، وكان منهم رسل ودعاة انتشروا في الأرض فنشروا المسيحية وأقاموا الكنائس والأديرة وعلموا فيها الناس حسبة لله. وكان تعليمهم رسالة مقدسة Vocation يعيشون بها ولها. وأصبح هذا التعليم ديانة أو كهانة Sacerdoce ترتفع فوق شهوات الدنيا وماديات الحياة. وقد وحدت الكنيسة أوربا المسيحية لقرون بالمسيحية ديانة، وباللاتينية لغة، وبالأخلاقيات أدباً واجتماعاً. وهذا ما كان في الإسلام حيث انتشر القراء الذين علمهم الرسول صلى الله عليه وسلم في الأمصار وقاموا بدورهم في الدعوة والتفقيه، وسار على نهج الرسول خلفاؤه. فأرسل عمر بن الخطاب نفراً وفرّقهم في البلاد. وكان عمر يوصيهم بقوله: "يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس، لا تأخذوا للعلم والقرآن ثمناً فتسبقكم الدناءة إلى الجنة"[35] وبالمثل كان يوصي عُمَّاله أن يقوموا بالدعوة إلى جانب الحكم والإدارة، ويبصر الناس بحقيقة عملهم قائلاً: "استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، ولم أستعملهم ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم."[36] كما كان يأمر المسلمين أن يقابلوا مبعوثيه من القراء في أيام الجمعة بالمساجد ليأخذوا عنهم أحكام الدين.[37]

وكانت حلقات العلم في المساجد تجمع الرجال والنساء على قارئ واحد. كما كان في زمن عثمان بالمسجد الجامع في المدينة، أو تخصص حلقات منفصلة للرجال والنساء، وكان ذلك هو التقليد الشائع.[38]

ومما يذكر أن الصحابي الجليل ابن عباس كانت له في المسجد حلقات تتنوع مادتها بحسب الرغبة في العلم، والطالبون له في صفوف، ويدخلون جماعة بعد جماعة: للتفسير، أو للفقه، أو للحديث، أو للشعر. وفعل مثله عمرو بن الحارث في هذا التعليم الديني المتنوع.[39]

---

35 أبو العينين، على خليل. "عمر بن الخطاب واهتماماته التربوية " في من أعلام التربية العربية الإسلامية، م/ 1، الرياض: مكتب التربية العربية لدول الخليج، 1988، ص41.

36 المرجع السابق، ص55.

37 الخربوطلي، على حسني. الحضارة العربية الإسلامية، القاهرة: الأنجلو المصرية، (د.ت)، ص333.

38 الطبقات الكبري لابن سعد، م/ 5، بيروت: دار صادر، (د.ت)، ص ص 26-27.

39 الذهبي، مرجع سابق، ص184. وعن ابن عباس، قال عطاء بن أبي رباح: "ما رأيت مجلساً قط أآرم من مجلس ابن عباس أآثر فقهاً وأعظم، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم آلهم في واد واسع".
ابن العماد الحنبلي، مرجع سابق، ج/ 1، ص75-76.

يقول ابن العماد الحنبلي: "لما مات العبادلة في 94هـ، صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي، وقاموا بمهام التفقيه والدعوة والإمامة والفتوى والقضاء، وسموا بالفقهاء. وقد أرسل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية عشرة منهم إلى شمال أفريقيا لتثقيف أبناء البربر[40] ولما أنهى موسى بن نصير فتوحاته في شمال أفريقيا ولى على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد (البربري)، وترك خلقاً كثيراً من العرب يعلّمون الناس القرآن وفرائض الإسلام.[41]

ولم يكن الفقهاء– وقد انتشر الإسلام وفتحت الأمصار– كالقراء يرسلون من المدينة كما حدث في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه، بل كانوا من نبت الثقافة الدينية التي قعَّد لها الرسول وصحابته والقراء، وأشعت في جنبات العالم الإسلامي.[42] وكان الفقهاء هم الأعلم من بين أقوامهم والأكفأ لتبليغ الدعوة والتفقيه في الدين، وخرج منهم أئمة أعلام: مالك في المدينة، وأبو حنيفة في الكوفة، والشافعي في بغداد ثم في مصر، وابن حنبل في بغداد. ومع كل إمام كوكبة من علماء المذهب تواصلوا وتكاثروا حتى إن المقدسي (ت/ 378هـ) في رحلته الشهيرة، عندما دخل جامع الفسطاط بمصر فيما بين العشاءين وجد نحو مائة وعشرة من المجالس العلمية في الدين وقال: "وعلى هذا جميع المساجد في مصر."[43]

هؤلاء الفقهاء الدعاة كانوا في مجملهم أصحاب حرف وصناعات وتجارات يتكسبون منها، لأن عملهم الديني ينهضون به حسبة لله، "فإفادة العلم أشرف الصناعات بعد النبوة"، كما قال الغزالي[44] وللرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك أحاديث، منها: "العلماء ورثة الأنبياء."[45] وقد وجدت قلة من الدعاة العاطلين عن العمل والمتفرغين للدعوة، ومن أجلهم أرسل عمر بن عبد العزيز لوالي حمص كتاباً بصرف رواتب للفقهاء المعلمين الذين حبسوا أنفسهم في

---

40 التوزري، إبراهيم العبيدي. تاريخ التربية بتونس، ج/ 1، تونس: الشرآة التونسية للتوزيع، (د.ت)، ص ص 78-79.

41 الحنبلي، ابن العماد. مرجع سابق، ج/ 1، ص113.

42 النصري، عبد الرحمن بن صفوان. مرجع سابق، ص ص 308-309.

قال الأوزاعي عن صحابة رسول الله: " آانوا مصابيح الهدي وأوعية العلم، حضروا من الكتاب تنزيله، وأخذوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأويله".

43 المقدسي، مرجع سابق، ص 205.

44 الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين، م/ 1، القاهرة: دار الشعب، (د.ت)، ص 23.

45 موسوعة السنة: الكتب الستة وشروحها، سنن الترمذي، ج/ 5، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، تونس: دار سحنون وإسطنبول: دار الدعوة، ط 2، 1992، ص 48، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (19)، حديث رقم 2682.

المساجد."[46] وذكرت بعض الإحصاءات التي أجريت في أواخر القرن الرابع من الهجرة وفي معظم الأمصار أن عدد العلماء الدعاة أصحاب الحرف والذين لا يأخذون أجراً عن دعوتهم كانوا حوالي ثلاثة أرباع العاملين في حقل الدعوة والتفقيه.[47]

وحتى اليوم، برغم التخصص العلمي والتفرغ للعمل حتى في الدين والارتزاق منه، لا تزال أعداد ذات تقدير من المثقفين والدينيين متطوعين للعمل حسبة لله.

وكانت تحرك الدعاة إلى الله في الأزمان القديمة آثار مشهورة، منها:"زكاة العلم نشره –عالم لا يعلم متمول بخيل– كتم العلم إثم كبير." كما كانت تحرك الجماهير للتعلم والتفقه آثار مماثلة، منها: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين– لا طلعت عليَّ شمس يوم لم أزدد فيه علماً– كن عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالثة فتهلك –من لم يتعلم العلم عذبه الله على الجهل– الجهلة همج رعاع لا يعبأ الله بهم."

ولقد كثرت الكتب التي تحفل بمثل هذه الآثار، كما سنبين في موضع لاحق.

وتحول المجتمع في ظل الدعوة الإسلامية إلى مجتمع التعليم المفتوح، وفيه يعلم الناس بعضهم بعضاً، ويتعلم بعضهم من بعض بدون رسميات وطقوس وإداريات وتنظيمات. تلك هي تربويات الدعوة، فماذا عن تربويات التعليم؟

رابعاً :الدين وتربويات التعليم:

والدين هنا يصاحب التعليم –كما صاحب الدعوة– ولكن في جانب كبير من أهدافه وموضوعاته. وترك للتعليم جوانب خاصة به في الطرائق والأساليب، في الإدارة والتنظيم، في تأهيل المعلمين وإجازتهم، ومراقبة أعمالهم، وفي غير ذلك من عناصر تعليمية استحدثها التطور في حضارة المجتمعات الإسلامية.

ولم تنفصل تربويات التعليم عن تربويات الدعوة بشكل مفاجئ عام تام وحاسم. فالدين ظل يوجه حركة المجتمع الإسلامي ونظمه العاملة ومنها التعليم. كما ظلت العلوم الدينية تحتفظ بهدفيها ومعرفتها بأكبر مساحة وأعظم اهتمام

---

46 الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان. آتاب المعرفة والتاريخ، م/ 1، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط/ 2،1981، ص118.

47 أحمد، منير الدين. تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتي القرن الخامس الهجري مستقاة من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، الرياض: دار المريخ، 1981، ص118، ص126.

في حقل التعليم، حتى إنّ أبا الحسن الأنباري، وكان يدرس الهندسة، يسأله بعض الفقهاء متهكماً: بم تشتغل؟ فيجيبه: إني أشتغل في تفسير قوله تعالي: "أ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ (ق: 6)، فأنا في علومي أشتغل بتفسير كيفية بناء هذه السماء.[48]

وظل مفهوم العلم بامتداد قرنين أو أكثر مقصوراً على العلم بالدين، استناداً إلى أحاديث نبوية منها: "العلم كله في القرآن –العلم ثلاثة ما خلاهن فهو فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة– طلب العلم فريضة على كل مسلم" وفسروه بعلم الحلال والحرام.[49] وترسخ مفهوم العلم فيما جاء به القرآن واختصت به السنة. قال الشافعي:[50]

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وأنشد أبو الطاهر السلفي:[51]

إذا ذكرت بحار العلم يوماً فقول المصطفى لا غير بحري

هو البحر المحيط وما عداه فأنهار صغار منه تجري

والصحابة من قراء وتابعوهم من الفقهاء اغترفوا من القرآن وفيه كمال المعرفة للمسلم، فالله: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ (النساء: 166)، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾ (الأنعام: 38). والقرآن تنزيل والسنة تأويل وتكميل. قال الأوائل من السلف: " ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن". وكان ابن مسعود يقول: "لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله."[52]

وعن صحابة رسول الله وتابعيهم كتب ابن تيمية:

---

48 البيهقي، ظهير الدين. تاريخ حكماء الإسلام، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، رقم 2312، ص40.

49 الجامع لابن جعفر، ج/ 1، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، (د.ت)، ص48.

50 ابن آثير، أبو الفداء. البداية والنهاية، ج/ 10، بيروت: دار الكتاب العربي، ط/ 2، (د.ت) ص254.

51 برنامج شيوخ الرعيني، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1962، ص117.

52 الكتاني، عبد الحي. مرجع سابق، ج/ 2، ص ص 169-174.

"فهذه الطبقة (من الصحابة) كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين والبصر والتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت من كنوزها، ورُزقت فيها فهماً خاصاً. فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الذي أنبتته الأرض الطيبة، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية (التابعين)، وهي التي حفظت النصوص فكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها بالقبول واستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها."[53]

وألحقت بعلوم الدين اللغة العربية لأنها مقدمة ضرورية أو أداة وسلية لتحصيل هذه العلوم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. ولهذا كان عمر بن الخطاب يأمر الناس قائلا: "تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض". وكتب إلى أبي موسى الأشعري: "أما بعد فتفقهوا في السنة وتعلموا العربية."[54] وقال أبو عمرو بن العلاء: "لعلم العربية هو الدين بعينه". ويري ابن خلدون أن "العربية لسان الدين وتعليمها من شرائع الملة"، والثعالبي يقول: "ومن هداه الله للإسلام اعتقد أن العربية في اللغات والألسنة والإقبال على تفهمهما من الديانة". وقال الزهري: "هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم"[55] ويقول صاعد: "إن الأندلس حتى الخلافة الأموية لم تعرف إلا علوم الشريعة وعلم اللغة."[56] كما يعرف القلقشندي في عصر متأخر المدَرِّسَ قائلاً: "الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والصرف ونحو ذلك."[57]

وفيما يختص بالصغار فإن تعليمهم قام كذلك في إطار الدين وأساسه القرآن. يقول ابن خلدون: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار الدين أخذ به أهل الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات."[58] وذلك مرتبط بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه."

---

53 أركون، محمد. الفكر العربي، (مترجم)، بيروت – باريس: منشورات عويدات، 1982، ص47 – من نقض المنطق لابن تيمية.

54 الجاحظ، البيان والتبيين، ج/ 2، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط/ 4، 1975، ص219.

55 تيزيني، طيب. من التراث إلى الثورة: حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ط/ 3، 1979، ص226 نقلاً عن الثعالبي في فقه اللغة.

56 العكش، إبراهيم على. التربية والتعليم في الأندلس، عمان: دار الفيحاء ودار عمار، 1986، ص48 ناقلاً عن صاعد في طبقات الأمم.

57 النجار، إبراهيم و الزربي، البشير. الفكر التربوي عند العرب، تونس: الدار التونسية للنشر، 1985، ص86.

58 ابن خلدون، مرجع سابق، صص 537-538.

كذلك ظل تأثير الدعوة واضحاً في الطريقة التي انتهجها شيوخ التعليم اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الأطهار من حيث عقد حلقات التعليم في المساجد وما يلحق بها.[59] وعندما قامت المدارس كانت فقهية في أغلبيتها الساحقة، وبنيت على غرار المساجد في الهيئة المعمارية والفعاليات الوظيفية. فالمدارس بها مآذن وقاعة صلاة ومحراب وإمام ومؤذن بالإضافة إلى ما استجد بها من مرافق تعليمية.

وبخصوص كتاتيب التعليم للصغار فإنها احتفظت بنفس النموذج الأولي الذي وجد عليه كتاب يثرب، وهو على درجة كبيرة من البساطة ولا يتطلب حتى بنية مؤسسية قائمة كالمدرسة، فالكتّاب يمكن أن يقوم في أي مكان ودون بنيان، ويصبح "مجرد تجمع أطفال في صحبة معلم."[60]

ثم بدأت رحلة الاختلاف والتمايز بين تربويات الدعوة وتربويات التعليم حتى في هذه المتشابهات التي تكلمنا عنها في السطور السالفة.

فالعلم–وهو موضوع التعليم– أخذ مفهوماً أوسع وأشمل من علوم الدين واللغة بعد أن ترجمت علوم الحكمة أو ما سمي بعلوم الأوائل واشتغل بها المسلمون وأصبح لها علماء وطلاب خصوصيون. وتعاظم هذا الاتجاه مع نفر من العقلانيين والفلاسفة المسلمين الذين لا يحصرون الدين في عقيدة توحيدية وعبادة شعائرية، ولكنه كذلك ثقافة وحضارة، علم وعمل، سياسة واقتصاد وعمارة. ولهذا فكل العلوم مطلوبة دينياً، وكما قالوا: "كل العلم يقوم به الدين."

وعند الجاحظية –إحدى فرق المعتزلة– "المعارف كلها ضرورية". والماوردي يؤكد بأن "كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة"، والتوحيدي يقول: "إذا كان العلم شريفاً وأشرف من كل شيء فقد استوعب الجنس هذا العموم، واشتمل على الأصل والفرع هذا الإطلاق؛ لأن العلم بالألف واللام لا يختص معلوماً دون معلوم ولا مشاراً إليه دون مدلول عليه، فقد دخل في هذا الطي كل ما أنبأ عن شيء، كان ذلك من قبيل الحس عند مصادمته أو من قبيل العقل عند مصادقته."

---

59 العبدري، ابن الحاج. مرجعت سابق، ج/ 1، ص104.

60 Buisson (F.) Nouveau Dictionnaire de Pedagagie et d'instruction primaire, Paris, Hachette, 1911, p. 96

قالوا عن الكتاب : فقيه وأطفال وسقف، وحتى السقف يعتبر أحيانا من الكماليات.

وحاجي خليفة- من المتأخرين- أيد بقوة هذا المفهوم وقال: "اعلم أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار، ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع، لأن في كل علمٍ منفعةً ما، في أمر المعاد أو المعاش أو الكمال الإنساني."[61]

وبالطبع لم ينتشر هذا المفهوم في كل أوساط العلماء والمثقفين، ولم يتقبله بارتياح السلفيون المحافظون، بل نقدوه واستعدوا السلطات لمقاومة أصحابه والتضييق عليهم.

فابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وتابعهما ابن رجب البغدادي وكلهم حنابلة، كتبوا عن المفهوم الحقيقي للعلم الذي جاء به القرآن وأخذ به الرسول، ووجدوا في العلوم المستحدثة في الملة، التي سماها بعضهم بعلوم الكفر بأنها مجرد "بدع وآراء خرص وأهواء فاسدة". والمتساهلون منهم وجدوا أن الجهل بها لا يضر في شيء.[62]

وفي أواخر القرن التاسع عشر، وقف الشيخ الأزهري "محمد عليش" معارضاً لسياسة التحديث في علوم الأزهر التي بشر بها الإمام محمد عبده، وأكد من جديد الرؤية السلفية المتزمتة قائلاً: "والمقرر في شريعة المسلمين أن المطلوب تعلمه: العلوم الشرعية وآلاتها وهي العلوم العربية."[63]

ولم يكن لهذه العلوم الحكمية رواج إلا في عهود قصيرة نسبياً استظلت بسياسة سلطة متفتحة ومستنيرة كما حدث مع المأمون والمعتصم والواثق في بغداد، ومع السامانيين في بخارى، ومع الفاطميين في القاهرة، ومع الموحدين بالأندلس، ومع الأغالبة في القيروان.[64]

ومع كل فقد كانت علوم الطب والفلك والفلاحة والكيمياء والفيزياء تدرس -وإن كانت في مواضع محصورة- ولم تجد المقاومة الشرسة التي عانت منها الفلسفة والفلاسفة، وكانت وكانوا في موضع ذم وتجريح.[65]

---

61 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م/ 3، ص ص 306-307.

62 الجوزية، ابن قيم. الفوائد، بيروت: دار النفائس، ط/ 3، 1982، ص ص 136-137.

63 باشا، نهاد إبراهيم. المجتمع الطموح، السعودية، بيروت، 1985، ص474.

64 إدريس، على. "سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار القيرواني" في: من أعلام التربية، مرجع سابق، م/ 2، ص67.

65 موسي، محمد منير. التربية الإسلامية: أصولها وتطورها في البلاد العربية، القاهرة: عالم الكتب، 1982، ص ص 81-82.

ومع تنوع العلوم التي تدرس في التعليم من دينية وطبيعية ولغوية وحكمية وغيرها، فقد نشأ مبدأ التخصص في العلم وفي التدريس، وهذا ما لم يكن مع علماء الدعوة وإن كانت لبعضهم شهرة في جوانب معرفية خاصة في الدين، بل كان من العلماء المدرسين من اشتهر بتدريس كتاب بعينه وأصبح رُحْلَةً أي يرحل إليه الطلبة لقراءته عليه والإجازة فيه. وندر من كان ملماً بعلوم متنوعة ويدرسها لطلبة العلم مثل كمال الدين بن يونس (ت/639هـ) وقد كان يدرس أربعة وعشرين فناً منها الفقه والحكمة والرياضة والطب والموسيقى.[66]

ولم تكن للمدرس حرية مطلقة في التدريس، فقد كان يخضع لشروط صاحب المدرسة أو الواقف لها أو من ينوب عنه في إدارتها سواء من حيث مذهبية المادة التي تدرس وكتّابها وعدد طلابها ونوعيتهم ومواعيد تدريسه وقيم عمله.

وقد حدث أن جمع وزير الخليفة المستعصم معلمي المستنصرية في بغداد عام 645هـ وألزمهم بتدريس كتب السلف التي حددها لهم برغم اعتراض ابن الجوزى صاحب المئات من الكتب والرسائل، ولم يجد بداً من الإذعان والطاعة.[67]

أما المدرسون في حلقات التعليم المسجدية فقد خضعوا للآداب العامة والأعراف المرعية في التصدر والتدريس خصوصاً وأن الجوامع الكبرى كانت تغص بعشرات الحلقات التعليمية في الوقت الواحد. وكانت للسلطات المسئولة مهام الإشراف ومراعاة حدود الالتزام بقيم وتعليمات النظام في التدريس. كما كانت للمحتسبين سلطة رقابية في مجال "الوفور والتقصير" للمهنيين ومنهم المدرسون.[68]

وفي معظم الأحوال لم يكن يرخص للعمل في التدريس إلا لمن ظهر نبوغه بين طلبة العلم وشهد له أستاذه بالأهلية وأجاد في حلقته أو عند زميل آخر وأثبت كفاءة تدريسية ملحوظة. وقد يضطر إلى الحصول على إذن من السلطات الرسمية في الحكم أو في القضاء، ويسعى لجمع شهادات تزكية من أهل الخبرة والثقة في العلم والدين.

---

66 ابن خلكان، وفيات الأعيان، م/ 5، بيروت: دار الثقافة، 1969، ص ص 311-312.

67 غنيمة، محمد عبد الرحيم. مرجع سابق، ص ص 186-186.

68 النويري، نهاية الأدب، السفر السادس، ص311.

كما تمايزت وتنوعت الأساليب الفنية في التدريس؛ فالدعوة أو التعليم البلاغي- بلغة ابن خلدون- والتي قامت بها طريقة التلقين قلّت أهميتها بجانب الطرائق الأخرى التي كان لها شيوع واستعمال في مؤسسات التعليم كالقراءة والشرح-الإملاء والاستملاء- والمحاضرة والمناظرة. وارتبطت بهذه الطرائق أساليب معززة لفعاليات التدريس من مناقشات، وتعيينات بحثية، وعروض كتابية، وتحفيظ وتسميع، وامتحانات تقويمية للحفظ والفهم والإجازة.[69]

ولم يعد المدرس هو ذلك العالم المهيب فوق المناقشة والرد: تؤخذ كلماته كالدرر ويسلم بها كأنها الحق والحكمة. لقد انتهي زمن مالك وأضرابه من الأئمة. لم يكن أحد من طلاب مالك يناقشه أو يستفهم احتراماً له وهيبة منه، مع أنه كان يقول لطلابه: "ماذا تكتبون عني، إني والله قد أري اليوم رأياً وأعدل عنه غداً إلى عكسه". إن علماء الدعوة كادوا -كما قال بعضهم- "أن يكونوا أرباباً."[70] يقول أحد طلاب زيد بن أسلم (ت/136هـ) وكانت له حلقة علم بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم: "ما رأيت متمارين ولا متنازعين في حديث لا ينفعنا."[71]

لقد أصبح المدرسون – في عصر التعليم الاحترافي- يخضعون قبل تعيينهم لامتحانات شفوية فيما يسمي"بالإجلاس الحافل" والذي تحضره فئات لعلماء ومثقفين وقضاة وطلبة، ويستمعون فيه لدرس عام ثم يمطرون صاحبه بفيض من الأسئلة. ولقد تعرض بعض المدرسين لإهانات لفظية وبدنية بل وللطرد إذا ما تبين ضعفهم في العلم أو في التدريس. وللأسف فقد تغيرت الأحوال في عصور الضعف والانحطاط وأصبحت وظيفة التدريس يحصل عليها بعضهم بالمال أو التنازل أو بالوراثة أو بالواسطة دون كفاءة أو جدارة.

وكانت للمدرس مكانة اجتماعية يتميز بها عن معلم الصبية في الكتّاب والذي اهتزت صورته المهنية إلي حد كبير، وينظر إليه على أنه جاهل أو نصف عالم، أحمق وغبي، ذليل وشحاذ ومسكين. ولهذا أنشد أبو العباس العدوي (ت/ 749هـ) منوهاً بمكانته كعالم وليس معلما في كتّاب:[72]

فشأن فحولة العلماء شأني وشأن البُسْط تعليم الصغار

---

69 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م/ 2، ص ص 171-223.

70 القرطبي، ابن عبد البر النمري. مرجع سابق، م/ 2، ص71.

71 الذهبي، مرجع سابق، ج/ 1، ص132.

72 ابن القاضي. درة الحجال في أسماء الرجال، ج/ 1، القاهرة: دار التراث، (د.ت)، ص16.

وفي المقابل وجدت طائفة أخرى من المعلمين- أصحاب علم وشهرة- درّسوا للصغار وللكبار تدريساً خصوصياً في أوساط أرستقراطية وعُليا البرجوازية من أبناء الحكم والإدارة، وكانوا يلقبون بالمؤدبين. وكوّن بعضهم ثروات ضخمة، أو خرجوا من التأديب إلى أسمى المناصب في الدولة، وكان منهم ولاةٌ ووزراء وقضاةٌ ومحتسبون.[73]

أنشد ابن أبي سليمان الصَوَّاف (ت/448 هـ) قائلاً:

تمنيت طول العمر أحيا مؤدبا وأسلك في التدريس للعلم منهجا

ومع ذلك فقد ولي الوزارة والبريد[74] وكما أنف المعلمون أن يكونوا فقهاء مكاتب أو معلمي صبية، فقد أنف هؤلاء المؤدبون أن يكونوا مدرسين في عصر ترخصت فيه مهنة التدريس في تصور بعضهم. روى البهائي أن أحمد بن على بن الحسين المؤدب (ت/448 هـ) أنشد قائلاً:[75]

تصدر للتدريس كل مهوّس بليد تسمي بالفقيه المدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ببيت قديم شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

والخلاصة أن "إفادة العلم" في مسار هذا التطور تحولت من "دعوة أو رسالة" تختص بالتفقيه في الدين طلباً وتعليماً، إلى "صنعة" بلغة التراثيين أو "مهنة" بلغة المعاصرين. يقول ابن خلدون: "صار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من جملة الصنائع والحرف – وقد ارتقي كصنعة بارتقاء العمران. "وجرى فيه أوائلنا على مقتضى العقل والاختبار بحسب الحاجة التي كانت تظهر لهم وتليق بحالهم. وكان الانتقال من طور إلى طور في التعليم يحصل بالتدريج". وقد ارتقي نوعاً في زمن العباسيين في المدارس النظامية، لكن هذا النظام لم يرتق ويعمم لأنه -كما ذكر رشيد رضا- "كانت جراثيم الضعف والمرض الاجتماعي قد بدأ يظهر تأثيرها في جسم الأمة."[76]

---

73 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م/ 1، ص ص 244-245.

74 آتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق ج/ 4، (لمؤلف مجهول)، دمشق: منشورات المعهد الفرنسي، 1972، ص121 (القسم الأول).

75 العاملي. الكشكول، ج/ 3، القاهرة، 1302 هـ، ص357.

76 مجلة المنار، م/ 15، ج/ 4 في 1912/4/17، ص ص 339-340.

في الزمن الأول كان الداعية يغرم في سبيل المبادئ التي يؤمن بها ويدعو إليها الناس، وأصبح المعلم يغنم من عمله ويحصل على الأجر الذي يرضيه إذا كان مطلوباً. وكان طالب العلم في زمان الدعوة يتفقه امتثالاً لأمر الله، بينما التلميذ في عصر التعليم يتعلم للحصول على وظيفة لها تقدير أدبي ومادي في المجتمع. فالغزالي دخل هو وأخوه أحمد- بعد موت أبيهما ونفاد ما خلّفه لهما من مال- المدرسة النظامية في نيسابور من أجل السكنى في المدرسة والطعام الذي تقدمه لتلاميذها. وفي ذلك يقول الغزالي "فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت."[77]

والتعليم كصنعة له جانبان: معرفي نظري، وتطبيقي عملي. والمعرفة النظرية أصَّلَها علماء ولهم فكر منظم حصلوه أو أنتجوه عن التعليم كعمل احترافي له قواعد وأصول. كما كانت لمعظمهم خبرة عملية بالتعليم ونجحت لهم أساليب تدريسية رأوا أهمية تعميمها والالتزام بها. وليس بالضرورة أن يتطابق الجانب العملي مع الفكر النظري يتمثله تماماً ويلتزم بمبادئه وتوجيهاته، فكثيراً ما كانت الممارسات التدريسية لمعظم المعلمين في موضع نقد وتجريح لقصورها وتقصيرها وبعدها عن تحقيق النتائج المتوقعة، مما هبط بمهنة التعليم في العصور المتأخرة، وأصبحت مهنة هزيلة على نحو ما قدمنا.

من المعلمين من كان "أضحوكة في قلة العلم"، ومن كان "يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب، ويجلس يلقيها ثم ينهض"، ومن "كان شيخاً مغفلاً أو غير حصيف العقل أو خسيف الدين أو كثير المجون أو نكر الخلق حرج الصدر"- ومن لم يفتح كتاباً ولم يقرأه."[78]

انتقد شمس الدين الذهبي (ت/748هـ) شيوخ الحديث في مجالسهم التعليمية بأسلوب تهكمي قائلاً: "فأي شيء ينفع السماع على جهلة المشيخة الذين ينامون والصبيان يلعبون، والشبيبة يتحدثون ويمزحون، وكثير منهم ينعسون ويكابرون، والرضع يتصاعقون. بالله خلونا فقد بقينا ضحكة لأولى العقول ينظرون إلينا ويقولون: هؤلاء هم أهل الحديث."[79]

---

77 الحنبلي، ابن العماد. مرجع سابق، ج/ 4، صص 10-13.

78 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م/ 2، صص 132-137/ وانظر: محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1987، ص77.

79 الذهبي، شمس الدين. بيان زغل العلم والطلب، دمشق القدس: مطبعة التوفيق، 347 أ، صص 9-10.

ومن جانبه ندد بسلبيات التدريس في زمانه طاش كبري زادة (ت/968هـ)، فقال: "ومن أقبح المنكرات أن ينظر المدرس كل يوم في عدة سطور ويفهمها ويلقنها المتعلم ولا يوجد في ذهنه المعلومات في جميع الأبواب أو أكثرها، فإن هذا يطرق العوام إلى روم منصب التدريس، إذ قلما يوجد عامي لا يقدر على فهم عدة سطور، وهذه البلية شاعت في زماننا. ولهذا اجترأ الجهال على الدخول في منصب التدريس، وبهذا اندرس رونق المدارس ورسوم العلم. ثم إن مثل هؤلاء هم السبب في اندراس العلم. ومع ذلك فهم يعاتبون الزمان، سيجزيهم الله تعالى. بما فعلوه."[80]

ومثل ذلك حدث في مصر بالجامع الأزهر ومساجد التعليم الأخرى. يقول رشيد رضا: "وأبعدنا عن معرفة فن التعليم هم الشيوخ الذين يعلّمون الدين وفنون اللغة في الجوامع والمساجد."[81]

وفي مقابل هذا الفريق بسلبياته، وجد أساتذة أعلام ضرب بهم المثل في جودة التعليم، وإن كانوا قلة بالنسبة للآخرين. قالوا في الفرَّاء وكان متميزا في تدريس النحو: "إن دام هذا (أي الفراء) على هذا (الأسلوب) علم النحو الصبيان". ومثله الطزماح، قال عنه أحدهم: "رأيت الطزماح ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم جالسوا العلماء"[82] والسخاوي يترجم لمعلم مجتهد فيقول: " ولا تخلو دروسه من عنديات وأبحاث مبتكرة"[83] والسيد عبد القادر كانت" له في حسن التعليم صناعة لا يقدر عليها غيره"، ومسعود بن عمر "فاق في حسن التعليم حتى كان يشارط عليه إلى أمد معلوم بمبلغ معلوم"[84] والغماري (ت/682هـ) بتونس: "دروسه منقحة الإيراد" بها مباحث وتعرض لوجوه الاختلاف[85] وابن خلدون (ت/808هـ) كان مبهراً في علمه وتدريسه حتي لقبوه "بسيف المحاضرة"[86]

---

80 زادة، طاش آبري. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ج/ 1، القاهرة: دار الكتب الحديثة، 1968، ص48-49.

81 الولى، الشيخ طه. المسجد في الإسلام، بيروت: دار العلم للملايين، 1988، ص88. مجلة المنار، سنة ثانية، عدد أول في 1899/3/11م، ص16.

82 ابن النديم. الفهرست، ليبزج: فولاج فون فوجل، 1872 م، ص68 وانظر: د. عبد الله فياض، تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي، بغداد: مطبعة أسعد، 1972، ص111.

83 السخاوي. الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، ص ص 340-341.

84 الشوآاني. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج/ 1، القاهرة: نشر الشيخ معروف عبد الله باسندوه، 1348 هـ، ص 63، 106، 199، 213، 354-356، 360-368.

85 القرافي، بدر الدين. توشيح الديباج وحلية الابتهاج، بيروت: دار الغربي الإسلامي، 1983، ص71.

86 الشوآاني، مرجع سابق، ص339.

والفرسطائي الإباضي (ت/440هـ) كان "يحض الطلبة على استيعاب العلم بالفهم والرجوع إلى أمهات الكتب المبسوطة وعدم الاكتفاء بالمختصرات."[87]

وفي مستوي تعليم الصغار في المكاتب كان الوضع التعليمي في مجمله أسوأ بكثير، لأن معلّمي الكبار في المساجد والمدارس كانوا إلى حد ما علماء لهم ثقافة وخبرة، وقدرة على التدريس يمكن تحسينها مع النقد والتوجيه، لكن أغلبية فقهاء المكاتب يخرجون من غمار العامة ومن أوساط شعبية ولا حظَّ لهم من علم إلا حفظ القرآن كله أو بعضه، ومعرفة هزيلة بأوليات القراءة والكتابة، فضلاً عن جهلهم التام بفنيات التعليم أو صنعته بلغة ابن عبدون في نقده لمعلمي المكاتب في الأندلس[88] ومع هبوط العلم والكفاءة هبوط الخلق وفساد الضمير، والناتج –كما قال السبكي– أن "نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة لأن فقيههم كان كذلك"، وقد قالوا: "دين الصبي على دين معلمه." [89] ومثل ذلك حدث في كتاتيب مصر في عصورها الأخيرة حيث كانت تخرج الأميين والعاطلين والمجرمين.[90]

أما عن تربويات التعليم في المجالات الطبيعية والرياضية والطبية والهندسية والفلكية وغيرها مما هو خارج علوم الدين واللغة، فلا يحمل لها التراث التربوي تصورات وممارسات مكتوبة أو موصوفة بكفاية بحيث يمكن الاهتداء بها في تحليلها وتقييمها.

فهذه التربية كانت للصفوة أو للقلة، وشيوخها يقومون بها إما في بيوتهم (كالفلاسفة) أو في أماكن عملهم (كالمهنيين التطبيقيين أو التقنيين). والعلاقة شخصية مباشرة بين الأستاذ وعدد محدود من تلامذته، والتعليم أشبه بالتلمذة الصناعية Apprenticeship حيث يتدرب الصبية ولسنوات متصلة بشكل عملي مع معلمهم وهو يمارس مهنته، ويلمون في النهاية بحصيلة معرفية وخبرات مهنية ومهارات عملية تؤهلهم ليكونوا مثل شيوخهم.

---

87 معمر، على يحيي. الإباضية في الجزائر، ج/ 1، غرداية،:المطبعة العربية، 1985، ص179–180.

88 بروفنا، ليفي. ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، القاهرة: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص25.

89 السبكي. معيد النعم ومبيد النقم، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1948، ص130.

90 "وثائق التربية" في مجلة الطليعة، القاهرة، ع/ 11، 1965، ص154.

ومثلهم لكن في مستوي أدني الحرفيون والصناع، لم تخرج عنهم أو تكتب لهم رسائل تربوية.[91] وفي هذا المجال (المهني والحرفي) يندرج تعليم الجواري. وكان ذلك عملاً تجارياً مربحاً حيث كانت تباع الجارية الموهوبة بعد تقيينها أو تربيتها بآلاف الدنانير.

يقول ابن الكتاني النخاس في جوار علمهن: "وهن الآن عالمات حكيمات فلسفيات هندسيات موسيقاويات أسطرلابيات معدلات نجوميات نحويات عروضيات أديبات خطاطات"[92] كيف علمهن و خرجهن؟ هذا ما لم يظهر جليا في التراث.

وخارج تربويات الدعوة والتعليم وجدت تربية من نوع آخر، إنها تربية الصوفية تتفرد بآداب وأهداف ومواد وأساليب ومؤسسات خاصة بها.

فالمتعلم (طالب أو تلميذ أو صبي) هو "المريد" عند الصوفية، ولا يلتحق بشيخه في مسجد أو مدرسة أو في بيت، وإنما في زاوية أو رباط أو خانقاه. ولا يقرأ كتاباً ولا يحمل محبرة فهي عورة. وعلم الصوفية "علم خرق لا علم ورق" مضمونه معرفة نورانية يقذف بها الله في قلوب عباده المؤمنين. إنها من الله وبالله ومع الله، ولا تدور حول موضوعات مادية أو دنيوية بل هي روحية أخروية. والمذاكرة عندهم مجاهدة (رهبانية)، والواجبات الدراسية عبادات دينية: صوم بالنهار وقيام بالليل. والارتقاء في مراحل التعليم هو اجتياز السالك لمقامات الطريق والوصول إلى كنز المعرفة حيث يتخلص الصوفي من طبيعته البشرية ويصبح بين الناس "كائناً بائناً"، وتعرف له حالات وجد وسكر وفقد وغيبة وصحو. ويتكلم بلغة كأنها الهذيان لأنها تختص بحالات نفسية وبواطن لا شعورية تخرج عنها إشارات ولا توصف في عبارات ولا تنقال في كلمات.

هذه التربية كانت في موضع إنكار أو نقد لكثير من العلماء والفقهاء لأنها تربية لا تعمل للتمكين في الدنيا، ولا لتنمية الشخصية وتأكيد الذاتية. إنها على العكس من ذلك: تخلع الإنسان من دنياه، وتعزله عن أهله وتبعده عن عمله وتمحو فيه طموحات النفس وشهوات البدن. إنها تربية لها فلسفتها التي قد تعرف بالغنوصية، ولها سيكلوجيتها

---

91 لقد ترجم أحد الباحثين لعدد 107 مهندساً و 32 مصوراً ونقاشاً في الإسلام دون تفصيل لفنيات التربية العلمية والمهنية في برامجها وأساليبها. باشا، أحمد تيمور.أعلام المهندسين في الإسلام، القاهرة: لجنة نشر المؤلفات التيمورية، 1957، 117ص.

92 ابن بسام. الذخيرة في محاسن الجزيرة، م/ 1، ص320.

التي تتناقض مع كل سيكلوجية علمية، ولها معرفتها السرية. وهي أولاً وأخيراً تجارب روحية لكل صوفي تجربته الخاصة وهو أعلم بها دون غيره.[93]

خامساً :الكتابات التربوية في التراث:

التربية من أقدم الظواهر الاجتماعية التي عرفتها البشرية منذ أن تكونت أول أسرة ضمت رجلاً وامرأة في حياة زوجية وأنجبا أطفالاً وقاما بتربيتهم. وتطورت في أنشطتها من دور الفعل الطبيعي للأسرة في المجتمع القبلي إلى دور الحرفة التي يختص بها أفراد تأهلوا ذاتيا في معرفة أو فن أو عمل داخل المجتمع المدني المنظم، إلى دور الوظيفة التي تمارس في مؤسسات وتخضع لسلطات محلية أو طائفية إلى دور المهنة التي تخضع لنظم تعليمية وطنية لها سياسات وإدارات وتنظيمات.

وفي كل مرحلة من مراحل التطور التاريخي للتربية تكونت معرفة خاصة بها تتمركز حول أنشطتها وصفاً ونقداً وتوجيهاً. واهتمت بهذه المعرفة كل طوائف المثقفين المعنيين بأمور الحياة في المجتمع.

وفي التراث الإسلامي ظهرت كتابات تربوية ذات مداخل مختلفة عن طبيعة الأنشطة التربوية الممارسة وهدفيتها وفعاليتها وحدود التزامها بقيم الإسلام وآدابه.

وللتعريف بهذه الكتابات فإننا نقدم وصفاً تحليلياً مركزاً يتناول مؤلفيها وموضوعاتها ومرجعياتها وتأثيراتها، وذلك في إطار عام لتجلية صورة بانورامية دون أن نقف مع كل كتاب نحلل محتواه، أو مع كل فكرة نبرز مضمونها، فذلك العمل يتجاوز الحدود المعينة لهذه الدراسة.

1- المؤلفون

وهم من فئات نوعية:

- دينيون، ومنهم فقهاء ومحدثون، ومحتسبون نهضوا بسلطات قضاء وشرطة ورقابة إدارية.

- أطباء، سواء الذين اشتغلوا بالطب كفن علاجي، أو اهتموا به كمعرفة نظرية.

---

93 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م/ 2، ص ص 303-367.

– مؤرخون، منهم من أرّخ لقيام الدول وسير الملوك وتطور الأحداث الكبرى في التاريخ، ومنهم من أرّخ لسير العلماء في طبقاتهم وبحسب تخصصاتهم (أطباء– فقهاء– نحويون ولغاة– أدباء) ومنهم من أرّخ للمدن وحضاراتها الثقافية والعمرانية. ويلحق بهم الرحالة الذين سجلوا رحلاتهم ووصفوا مشاهداتهم.

– فلاسفة، ممن أطلق عليهم فلاسفة الإسلام، وتغلب عليهم الصفة الفلسفية قبل غيرها من صفات علمية أو فكرية أخرى.

– مثقفون، من أصحاب المعرفة الموسوعية في الثقافة والتي تشمل السياسة والأدب والاجتماع والتربية والدين ... الخ.

– صوفية، ممن اشتهروا بالكتابة في التعريف بالتصوف: أحواله وآدابه وأصحابه.

وأكثر هؤلاء المؤلفين في كل نوعياتهم اشتغلوا بالتربية، أي مارسوها عملياً على وجه من الوجوه فكانت لهم خبراتهم التي تؤصل فكرهم. والأقلية كتبوا عنها كظواهر مشاهدة ولها شيوع وانتشار وتأثير كبير في حياة المجتمع؛ ومن ثم يهتم بها كل الناس على اختلاف مستوياتهم ومواقعهم وثقافاتهم.

2– المؤلفات:

تتنوع المؤلفات تنوعا كبيراً فيما بينها:

– إذ نجد منها كتباً متخصصة في موضوعاتها، ومبسوطة نوعا في مادتها، مثل كتاب ابن سحنون: "آداب المعلمين" وكتاب القابسي: "الرسالة المفصلة" وهما من الفقهاء، وكتاب الخطيب البغدادي (الفقيه والمتفقه) وهو فقيه ومحدث، وكتاب السمعاني "أدب الإملاء والاستملاء" وهو محدث، وكتاب ابن عبد البر النمري القرطبي "جامع بيان شرف العلم" وهو محدث.

– ونجد منها كتباً صغيرة أو بمعنى أصح رسائل تربوية مثل كتاب: "العالم والمتعلم" لأبي حنيفة، وكتاب: "أيها الولد" للغزالى" وكتاب: "تعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجى، وكتب الخطيب البغدادي: "الجامع لأخلاق الراوي"– "الرحلة في طلب الحديث"– "تقييد العلم"– "شرف أصحاب الحديث."

– ونجد منها فصولاً أو أبواباً متضمنة داخل كتب ذات أرضية معرفية أوسع وأشمل من التربية، كما ورد للغزالي في كتابيه: "إحياء علوم الدين" و"ميزان العمل"، وكما ورد لابن سينا في كتابه "السياسة" إذ خصص باباً من خمس ورقات أو صفحات بعنوان "سياسة الرجل ولده". وتوجد فصول للعبدري (ابن الحاج) في كتابه "المدخل"، وكذلك في الخطط للمقريزي، وفي "الانتصار" لابن دقماق. كما توجد موضوعات وفصول لابن خلدون في مقدمته.

– ونجد منها أخيراً فقرات وأخباراً في كتب ثقافية وعلمية، كما ورد في كتاب "أدب الدنيا والدين" للماوردي، و"صيد الخاطر" لابن الجوزي، و"الأعشي" للقلقشندي، و"الكامل" للمبرد، و"الأغاني" للأصفهاني، و"نفح الطيب" للمقري، و"تهذيب الأخلاق" لابن مسكويه، و"طوق الحمامة" و"المحلي" لابن حزم، و"المقابسات" و"البصائر والذخائر" للتوحيدي، و"البيان والتبيين" و"الرسائل" للجاحظ، وما جاء في "رسائل إخوان الصفاء" وكتب الطبقات، وكتب التاريخ كالبداية والنهاية لابن كثير، والمنتظم لابن الجوزي، وكتب الرحلات (للمقدسي وابن بطوطة وابن جبير) ومثل ما ورد في كتب الدين (الخاصة بالفقه والحديث والتفسير) وما ورد في كتب الفلسفة (للكندي والفارابي وابن رشد وابن طفيل وابن باجه...الخ) وما جاء في كتب الطب (كالقانون لابن سينا، وسياسة الصبيان لابن الجزار... إلخ)، وما جاء في كتب التراجم، وكتب الحسبة للشيزري وابن بسام وابن الأخوة والقرشي... الخ).

والكتب المتضمنة لهذه الفقرات والأخبار في التربية أكثر من أن تحصى. وندر أن نجد كتاباً لا يتضمن فقرة أو خبراً عن التربية. والفقرات قد تتكاثر وتطول حتى تصبح أشبه بالأبواب أو الفصول، وبعضها يقتصر على عبارة خاصة بفكرة، أو على بضع جمل متصلة في موضوع تربوي.

3– الموضوعات:

أ –آداب تربوية خاصة بالمعلم والمتعلم:

موضوع هذه الآداب كان من أبرز الموضوعات التي أُلفت لها كتب أو خصصت لها رسائل أو فصول تقليداً لليونانيين. والواقع أن كل المهن الراقية التي تؤثر بشكل مباشر وخطير في حياة الناس، خصصت لها كالتربية مؤلفات

في آدابها تحدد واجبات المهنيين الوظيفية وتضمن التزامهم بقيم التعامل مع زبائن المهنة ومراعاة صالحهم وعدم الإضرار بحقوقهم، ومن أمثالها:

"أدب الطبيب" للرهاوي- "أدب القاضي" للشيباني وآخر للؤلؤى أما في التربية، ومن الكتب المستقلة:

كتاب "الفقيه والمتفقه" للبغدادي، وكتاب "أدب الإملاء والاستملاء" للسمعاني، و"أخلاق العلماء" للآجري، و"أدب الدارس والمدارس" للنووي، و"تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لابن جماعة، و"المعيد في أدب المفيد والمستفيد" للعلموى، و"الدر النضيد في آداب المفيد والمستفيد" للغزي.

كما توجد فصول خاصة بهذه الآداب في كتب ابن سحنون والقابسي والغزالي وابن عبد البر، و"أدب الطلب" للشوكاني وفي التربية الصوفية كثرت كتب الآداب، فهي بالصوفي أليق، ومنها:

"آداب المريد" للشيخ كيسو دراز، و"أدب المريدين" للسهروردي، و"المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد" للشاطبي، و"آداب المريدين" لكل من محمد بن خفيف السيراز، والسهرندي، ويحيى الحضرمي.

ولهذه الآداب فصول في كتب "نعت البدايات" لابن مامين، و"وارف المعارف" للسهروردي، و"الرعاية لحقوق الله" للمحاسبي.

ويلحق بموضوع الآداب أحكام فقهية خاصة بالتعليم، لأن العلم وتعليمه محكوم بتعاليم الدين وقيمه. ويدخل في ذلك أول كتاب مرجعي، وهو كتاب ابن سحنون، وما تبعه وإن زاد عليه هو تقليد له واقتباس منه مثل كتاب القابسي، ثم ما جاء بعد ذلك للمتأخرين، كالمغراوى في "جامع جوامع الاختصار"، والهيثمي في "تحرير المقال."

ب –أهمية العلم وفضله وشرف تحصيله وتعليمه وبالذات في مجال العلوم الدينية:

والكتاب الجامع أو العمدة في هذا الباب هو لابن عبد البر المشار إليه سابقاً" جامع بيان شرف العلم وفضله." فقد جمع آيات وأحاديث ومأثورات كثيرة. كما توجد كتب أخرى صغيرة، منها "الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه" لأبي هلال العسكري. وما أكثر الكتب التي حفلت بفقرات خاصة بهذا الموضوع.

ج –فنيات التعليم والتعلم:

وهذا الموضوع يتسع لكتابات كثيرة ومن منظورات دينية وفلسفية وطبية واجتماعية وسيكلوجية وبيداجوجية، ابتداءً من سن التعلم وعلامات النضج والتهيؤ للتعليم، والتدرج فيه، ومراعاة أحوال المتعلمين في الفهم والتحصيل، وتقويم التحصيل، وفن إلقاء الدرس، واستثارة دافعية المتعلم، ومشاركة المتعلمين، وتنمية قدراتهم في التعلم حفظاً وفهماً، وكيفية العقاب وشروطه، والتحذير من الشدة فيه.

ولا نجد كتاباً واحداً جمع هذه العناصر كما نجد في الكتب التربوية الحديثة، لكننا نجدها متفرقة في معظم الكتب أو الرسائل أو الفصول التي أشرنا إلى بعضها. ولقد وقفنا على عنوان لكتاب لم نعثر عليه "إحياء النفوس في صنعة إلقاء الدروس" لتقي الدين على عبد الكافي السبكي (ت/ 756هـ) لكن من أحسن الفصول التي تمس كثيراً من هذه العناصر ما نجدها في مقدمة ابن خلدون، ومنها:

التعليم للعلم من جملة الصنائع –كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل– كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم —وجه الصواب في تعليم العلوم وطرق إفادته– العلوم الإلهية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل– تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه — الشدة على المتعلمين مضرة بهم.

4– مرجعياتها

تتعدد المرجعيات التي أفادت منها الكتابات التربوية بحسب الموضوعات التي تعالجها والأزمان التي ألفت فيها والبيئات ومؤثراتها الثقافية التي كوَّنت مؤلفيها.

إن تربويات الدعوة تولدت بنزول القرآن وتفعيل السنة النبوية قولاً وفعلاً وتقريراً. وانتهى القرن الأول وما يقرب من نصف القرن الثاني دون تدوين حقيقي للعلم. وعندما دونت كانت كاملة أو شبه كاملة شأنها في ذلك شأن العلوم التي وضعت على الابتداء. يقول ثعلب في كتاب النحو لسيبويه (عمدة الكتب النحوية ومرجعها الأساسي): " اجتمع عليه إثنان وأربعون إنساناً منهم (أو ربما آخرهم) سيبويه". وهكذا نمت العلوم أصولاً وفروعاً وطرائق في عصر المثاقفة الشفوية حتى إن مجاهد بن جبير (ت/103هـ) بمكة وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير، قال: "ذهب العلماء فما

بقي إلا المتعلمون"[94] وابن المقفع (ت/142هـ) في بداية عصر تدشين العلم أو تدوينه، قال: " منتهي علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم"[95] أي علم السابقين. ومن ثم فإن تعليم الدين قرآناً وفقهاً وحديثاً استند في تربوياته – كما وضحنا– إلى المبادئ العامة في القرآن والحديث وإلى الممارسات النبوية في التعليم واجتهادات الخاصة من الصحابة في تبليغ الدعوة. وتكونت ثقافة شفوية متجانسة ومنتشرة مخصصة بنشر علوم الدين وتعليمها بالتلقين والتلقي. وبدأت تربويات التعليم الديني تتجاوز شيئاً فشيئاً نطاق الدعوة إلى نطاق التحصيل الدراسي المنظم في عمليات تعليمية لأهداف ثقافية ومهنية. ويعد أبو حنيفة المثال المرجعي الذي جمع علمه وتعليمه بين تربويات الدعوة بمفهومها البلاغي وتربويات التعليم بطرائقه الفنية، وكتاب "العالم والمتعلم" هو كتاب في أدب الدعوة الإسلامية وفي التعليم الفقهي على السواء ولكن مادته مختصرة للغاية.

ولم يمض الزمان طويلاً حتى ظهرت تربويات تعليم تجاوزت التعليم الديني واللغوي إلي تعليم المواد الفلسفية والعلوم الطبيعية والعملية. وكانت تدرس علوم الحكمة في مجالس أكاديمية خاصة سواء في دور تعليمية، أو مكتبات عامة أو بيوت الحكمة أو المؤسسات المدرسية في بخارى ونيسابور والتي ورثت تقاليد تعليمية قديمة خاصة بتدريس الرياضة والفلك والفلسفة والطبيعات في الرها ونصيبين وجند نيسابور وحرّان، ثم في المدائن وعسكر والحيرة[96] وذلك على أيدي مترجمين ومعلمين غير مسلمين (سريانيين) مما كون مرجعية أجنبية منهجية يغلب عليها الطابع اليوناني الهلليني والهللستيني.[97]

ولم تخل عملية التلاقح الثقافي بين ديانة إسلامية وعلوم أجنبية من اجتهادات أصلية لعلمائنا المسلمين ظهرت ثمارها في تآليفهم مادة ومنهجاً، وفي صفتها المزدوجة العلمية والتربوية؛ وإن كانت بينهم معارضات بحسب التخصص العلمي والمذهب الديني.

فالفقهاء تقيدوا إلى حد كبير في التأليف وفي التدريس بالمأثور الديني، حتى إن ابن سحنون في كتابه (آداب المعلمين) لا يعالج التربية في مسائلها إلا من خلال أحكام فقهية، ضارباً عرض الحائط بكل فكر تربوي لم ينبع من

---

94 ابن آثير، أبو الفداء. مرجع سابق، ج/ 9، ص 228.

95 ابن المقفع، مرجع سابق، ص 64 من الأدب الكبير.

96 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م/ 1، ص 29.

97 إسحاق، رفائيل بأبو. مدارس العراق قبل الإسلام، بغداد: مطبعة شفيق، 1955، ص 250.

مصدر ديني سلفي موثوق فيه. وأثّر هذا النهج في كل من تبعوه أو خلفوه في أجيالهم المتعاقبة، عند القابسي (ت/403هـ) في "الرسالة المفصلة" والعبدري (ت/737هـ) في "المدخل"، وحتى الونشريسي (ت/914هـ) في "المعيار" والمغراوي (ت/929هـ) في "جامع جوامع الاختصار"[98] والإنبابي ورسالته في "رياضة الصبيان"، والأنصارى في "اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم."

وعلى شاكلتهم المحدثون الذين كتبوا في التربية من منظور السنة النبوية كابن عبد البر (ت/463هـ) والسمعاني (ت/ 562 هـ).

أما الأطباء الذين كتبوا في التربية فقد كانت لهم مرجعية علمية أجنبية يونانية المصدر. يقول القفطي:

"والإسكندرانيون هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم ومجالس الدرس الطبي، وكانوا يقرأون كتب جالينوس ويرتبونها على هذا الشكل الذي نقرأ عليه اليوم."[99]

والرهاوي في "أدب الطبيب" كثيراً ما ينقل بالنص عن جالينوس، ويقول: "معلمنا جالينوس"، ويطالب المتعلم في الطب بضرورة فهم كتبه الستة عشر. كما ينقل عن بقراط وبالذات في اختلاف صور سكان المدن وأخلاقهم وأفعالهم وحالاتهم، وأثر الرياضة والغذاء والصناعات والعادات ... الخ. [100] وكل الأطباء الذين اهتموا بالعناية بصحة الطفل وتربيته نقلوا من جالينوس وبقراط ابتداءً من أبي بكر الرازي في "الحاوي"، وابن الخطيب الأندلسي في "عمل من طب لمن حب"، وعريب بن سعيد في " كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالي والمولودين"، وابن الجزار القيرواني في "سياسة الصبيان وتدبيرهم"، وابن سينا في "القانون في الطب"، وحتى ابن قيم الجوزية، الفقيه الحنبلي، في كتابه " تحفة المودود بأحكام المولود" فقد رجع إلى هذه المصادر اليونانية حيث تتحكم طبيعة الموضوع العلمية كما رجع إلى مصادره الدينية حيث تتحكم قيم الدين وتعاليمه وآدابه.

---

98 الأهواني، أحمد فؤاد. التربية في الإسلام، القاهرة: دار المعارف، 1986، ص 250.

99 غنيمة، محمد عبد الرحيم. مرجع سابق، ص ص 55-56.

100 الرهاوي، إسحاق بن على.أدب الطبيب، (مخطوط) فرانكفورت: معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية التابع لجامعة فرانكفورت، 1985، ص 182.

يقول في مقدمة كتابه المذكور: "جاء كتاباً بديعاً في معناه، مشتملاً من الفوائد على مالا يكاد يوجد في سواه، من نكت بديعة من التفسير وأحاديث ومسائل فقهية، وفوائد حكمية تشتد الحاجة إلى العلم بها: ويصرح في مواضع متفرقة من كتابه بما ينقله بالنص عن بقراط وجالينوس.[101]

ولقد عالجنا في دراسة خاصة بالفكر التربوي ومصادره عند الغزالي نوعية المرجعيات التي أفاد منها في كتاباته. ولا ينكر أن فيلسوفاً كبيراً مثل أفلاطون أو أرسطو "معروف بدقائق العلوم"[102] ويعترف بأنه مع الحق سواء جاء به الدين أو العلم، قال:

"ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا. (الكلمات مفاهيم تحمل دلالاتها العلمية) من أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل مع أن بعضها من مولدات الخواطر (وهذه بنت ثقافة صانعة أو منتجة) ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر. وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم (أي في كتب الأوائل) فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان –ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة– فلم ينبغي أن يهجر وينكر؟"[103]

وعموماً فإن المتأخرين لم يرجعوا دائماً إلى الأصول في مصادرها الأولية، وإنما رجعوا غالباً إلى مصادر ثانوية وكتابات سابقيهم ينقلون منها.

فابن جماعة في كتابه " تذكرة السامع" كتب في مقدمته: "وجمعت ذلك كله مما اتفق في المسموعات أو سمعته من المشايخ السادات، أو مررت به في المطالعات، أو استفدته في المذاكرات."[104]

---

101 الجوزية، ابن قيم. تحفة المودود بأحكام المولود، بيروت: دار الكتاب، العربي، ط/2، 1983، ص 8-9.

102 قمبر، محمود. دراسات تراثية، مرجع سابق، م، 2، ص 243.

103 الحاج، فائز محمد على. "أبو حامد الغزالي" في من أعلام التربية، مرجع سابق، م/ 3، ص 51.

104 ابن جماعة، بدر الدين. تذآرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، مذآور في آتاب: د. عبد الأمير شمس الدين، المذهب التربوي عند ابن جماعة، بيروت: دار أقرأ، 1984، ص 63.

والسيوطي في كتابه "الرحمة في الطب والحكمة" يقول: "التقطت هذا الكتاب من كلام أبي الطيب ومن كلام الأشياخ ومن كتب شتي" إسلامية[105] وغير إسلامية وكل معاصريه من علماء القرن العاشر الهجري وفقهائه نهجوا نهجه وكان التأليف عندهم "جمع كتب" كما قالوا. ولقد أكد هذه الحقيقة المغراوى بالبيت الذي جاء فيه:[106]

لم يدع من مضى للذي قد غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا مفكر عبقري: ابن خلدون (ت/808هـ). ففي مقدمته المبدعة عرض تاريخي / وصفي/ تحليلي/ نقدي/ مقارن للثقافة العربية/ الإسلامية في نشأتها وتطورها ونوعية المؤثرات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي أسهمت في تفعيلها. وفي هذا العرض يؤسس لمنهجية بحثية يقوم عليها علم التاريخ، وعلم الاجتماع. ولأنه موسوعي الثقافة فقد رجع إلى مصادر متنوعة للغاية في مادتها وجنسيتها. وعالج التربية –ضمن معالجاته البحثية– بلغة علمية راقية تعبر عن أستاذية فريدة في تاريخ العلم والفكر.

ولقد كان ابن خلدون استثناء بالفعل سواء بين معاصريه ومن خلفوه أو بين من سبقوه بالاجتهاد أو بالتقليد والذين لم يبق لهم في مجال تربويات التعليم، إلا شرح ما قاله الأوائل داخل طرح معرفي إسلامي.

إن ما كتبه أفلاطون في وصيته عن "تأديب الأحداث" والتي نقلها إسحاق بن حنين (ت/298هـ) أصبح بالفعل مادة أساسية وأولية استحوذت على فكر واهتمامات المثقفين المسلمين من دينيين وعلميين، خصوصاً وأن هذه المادة كانت مركزة وشاملة لعناصر التعليم: المعلم قدوة – الحزم في التأديب –الضرب من غير غضب أو اختلاط– مراعاة قدرة كل متعلم– تنظيم التعليم في جماعات.[107]

وما خرج من فكر تربوي بعدها في عصور الأدبيات العامة كان مجرد تحصيل حاصل، علماً بأن ما كتبه أفلاطون كان بدوره ثمرة تطور حضاري في التعليم أقدم بكثير من أفلاطون.

---

105 السيوطي، جلال الدين. الرحمة في الطب والحكمة، فاس: مكتبة الرشاد، (د.ت)، ص 2.

106 المغراوي، أحمد بن أبي جمعة. جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين و آباء الصبيان، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1986، ص62.

107 النجار، إبراهيم والبشير الزريبي. الفكر التربوي عند العرب، تونس: الدار التونسية للنشر، نقلاً عن مسكويه في آتاب الحكمة الخالدة 1985، ص 395.

خلاصة وخاتمة:

1- كل الكتابات الخاصة بالتربية في التراث الإسلامي قدمت تربويات من نوعين : تربويات دعوة وتربويات تعليم، ولكل منهما هدف ومادة وطريقة. والتعليم الديني في معناه الاصطلاحي كان وسيطاً بينهما بشكل أو بآخر.

وللأسف فإن التربويين المعاصرين يسقطون هذا التمييز الفاصل بين النوعين مما يتسبب في وقوع أخطاء بشعة تسيء إلى الدين وإلى العلم على السواء. فهم عندما يتكلمون عن الصحابة والتابعين كمربين، أو يعالجون طرائق التربية وأساليبها فإنهم يسقطون ما في تربويات الدعوة على تربويات التعليم. وترتبط بهذه "الزحلقة" ادعاءات باطلة ومغالطات مفضوحة على نحو ما قدمناه في موضوع "ابتذال المنهج."

2- كما تنوعت الكتابات في التراث وإن تركز معظمها في التعليم الديني وملحقاته اللغوية وأسهم فيها مثقفون من كل التخصصات، وتباينت في مادتها بين كتب مبسوطة وفصول مضغوطة وعبارات منثورة. كما أنها امتدت بامتداد عصور متعاقبة، لم يكن للأواخر فيها غير ترديد ما قاله المتقدمون، وإبداع ابن خلدون فيها ظاهرة فريدة كما ذكرنا سلفاً.

3- هذه الكتابات لم تؤسس-في إطار المعرفة- علوماً تربوية، فهي كغيرها في كل الحضارات التاريخية دخلت في بطن الفلسفة التي احتوتها باعتبارها "ملكة المعارف وأم العلوم" والتي كانت تضم الإلهيات والطبيعيات والرياضيات والإنسانيات والجماليات.

ولم تشهد العلوم الإنسانية والاجتماعية تحررها من قيود الفلسفة إلا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. والبداية كانت مع علم النفس التجريبي والذي اقتفى أثر العلوم الطبيعية التي سبقته في التحرر بقرنين. ومع نمو العلوم الأخرى في الاجتماع والاقتصاد والإدارة وغيرها أصبح للتربية فروع علمية خرجت منها واستقلت ونمت على نحو ما نعرفه اليوم.

4- ولأنها كتابات، وليست علوماً لها استقلاليتها الذاتية في بنيتها المعرفية ومنهجيتها البحثية، فإن هذه الكتابات لم تخرج عن إطار الأدبيات التي مشت بها المأثورات الدينية والحكمية، والخواطر المرسلة التي تنسجم مع

الذوق العام والحس المشترك. كما مشت بها خبرات الحياة اليومية، والفتاوى الفقهية، والقيم الاجتماعية المرعية. فالجاحظ في أقواله مثل:

"متى ثقل الدرس تثاقلت النفس" أو "الحفظ عدو الذهن" أو وجوب تنويم الطفل على سرور بلا فزع أو غيظ أو غم.[108]

وابن سينا في طلبه مراعاة اختيار الصنعة بما يشاكل طبع الصبي –وأن يكون المؤدب حاذقاً بتخريج الصبيان.[109]

والشوكاني مقلداً لسابقيه في مقولة: "يختلف الانتفاع بالعلوم باختلاف القرايح والفهوم."[110]

وأبو هلال العسكري الذي خصص كتابه الصغير "الحث على طلب العلم" لشرح مقولة الأوائل:

"لا يتم العلم إلا بستة أشياء: ذهن ثاقب، وزمان طويل، وكفاية، وعمل كثير، ومعلم حاذق، وشهوة. وكلما نقص من هذه الستة شيء نقص بمقداره من العلم."[111]

لم يكن هؤلاء وغيرهم يبحثون في العلم التربوي. ولم تكن لهم مناهج معتمدة تؤدي بهم إلى كشف حقائق علمية، أو تقنين أوضاع متفلتة، أو تقييم حالات متسيبة، أو تصحيح أخطاء مترسبة، وإنما كانوا يعبرون عن ثقافة عامة، حصيلة خبرات حضارية متراكمة، ولم تخرج من قلب الواقع فكراً موضوعياً لمعالجة إشكالاته وصفياً وتحليلياً، لا قيمياً أو معيارياً. وكما ارتبط بها الصواب الذي أيدته البحوث التجريبية في عصرنا، ارتبط بها كذلك وفي أحيان كثيرة فكر خرافي أسقطه العلم الحديث.

فابن قيم الجوزية يعلل ظاهرة البكاء الشديد عند المولود بوكز الشيطان وطعنه الطفل في خاصرته.[112]

---

108 القزاز، محمد سعيد. الفكر التربوي في آثابات الجاحظ، القاهرة: دار الفكر العربي، 1955، ص16.

109 ابن سينا. باب: " في سياسة الرجل ولده"، في: مجموع في السياسة، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة (د.ت) ص ص 102-105.

110 الشوآاني، محمد بن على. أدب الطلب، صنعاء: مرآز الدراسات والأبحاث اليمنية، 1979، ص 137.

111 العسكري، أبو هلال. الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، بيروت: المكتب الإسلامي، 1986، ص ص 47-48.

112 الجوزية، ابن قيم. تحفة المودود، مرجع سابق، ص 225-227.

والمغراوي يقدم للمعلم خمس عشرة رقية "وشربة مباركة متلقاة من قطب عصره" تحقق له الكفاءة والنجاح في عمله، وتساعده على قوة الحفظ في علمه.[113]

وابن سحنون ينهى معلم الكتاب عن تعليم أوليات اللغة بطريقة " أبجد هوز" لأنها أسماء شياطين."[114]

5- لم تسر معظم الكتابات في خط معرفي تراكمي، يتجاوز فيه اللاحق السابق؛ بل أخذ آخرها من أولها. كما أنها لم تدخل في دائرة اتصال تفاعلي يثري وحدة المعرفة في جوانبها الدينية والعلمية والأدبية والتقنية، بل ظلت في أغلبها كتابات نوعية في تخصصاتها، وطائفية في مذهبيتها. وكانت الكتابات الدينية وبالذات في عصورها الأخيرة متزمتة وجامدة، محافظة على الخط السلفي التقليدي الموروث. فالزرنوجي ينهى طلبة العلم عن الكتابة بالمداد الأحمر فذلك صنيع الفلاسفة[115] والونشريسي ضد جلوس شيوخ التعليم على كراسي فهذه "بدعة يجب قطعها"، ولا يستحق حضور آباء وأمهات الأولاد للمكتب في اجتماعات احتفالية بها ذكر آيات قرآنية وصلوات على النبي.[116]

والعبدري ضد علماء عصره الذين يفضلون المعقول على المنقول وينكبون على دراسة المنطق ويقول متهكماً: "فليت شعري هل قرأه الشافعي ومالك؟" وكان أيضاً ضد بدعتهم في ارتداء الطيلسان.[117]

والغزالي من قبل نصح طالبه بأن يدرس علوم الدين فقط ولا يضيع عمره في تحصيل غيرها، مع أنه كان يتحسر لعدم وجود أطباء مسلمين حيث تكالبوا على دراسة الفقه طلبا للوظيفة والجاه، وهو مع فقه الآخرة.[118]

6- وأخيراً، فإن هذه الكتابات لم تسهم في تحسين حقيقي لممارسات التعليم، ولم تدخل به في تطورات متواصلة؛ بل ضجت الشكوى في كل عصر من سوء التعليم وقصوره، وتواترت شهادات الكبار من العلماء تؤكد ما يرونه كحقيقة خاصة بانقراض العلم وذهاب رسومه[119] ويرجع ذلك القصور لأسباب منها:

---

113 المغراوي، أحمد بن أبي جمعة. مرجع سابق، ص 52.

114 ابن سحنون في التربية في الإسلام، مرجع سابق، ص 367.

115 الزرنوجي. تعليم المتعلم طريق التعليم، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2312، ورقة 41 أ، 43 أ.

116 الونشريسي، أحمد بن يحيى. المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء أفريقيا والأندلس والمغرب، بيروت: دار المغرب الإسلامي، 1981، ص 476، ص486.

117 العبدري، ابن الحاج. مرجع سابق، ص ص 118-139.

118 رضا، محمد جواد. التيارات الكبرى في الفكر التربوي العربي الإسلامي – الأصول والمبادئ، تونس: أليسكو، 1987، ص 642.

أ- عدم وجود إدارات مركزية أو إقليمية ترعى حركة التعليم في كل عناصره. فالتعليم كان عملاً حراً وأهلياً، حتى وإن أسهمت بعض السلطات الحاكمة في إنشاء عدد من المدارس. إن التعليم وطوال عصور متعاقبة لم يكون نُظماً قومية أو وطنية لها سياسات ومناهج وأطر تعليمية وقوانين ولوائح... الخ. وإنما كان عملاً يمارس في مؤسسات مستقلة ومتباينة فيما بينها في كثير من عناصر تعليمها.

ب- برغم انتقال المخطوطات وشيوع الكتابات في جنبات العالم الإسلامي، فإن وقائع التعليم خضعت لظروف بيئاتها وثقافاتها المحلية، ومشت معها تقدماً أو تخلفاً بشكل يتغاير من بلد لآخر. فالتعليم -كما قرر ابن خلدون- من جملة الصنائع، وهذه تزدهر بازدهار العمران، ويقدم دليلاً حياً على صدق قانونه مبيناً تدهور حالة التعليم ببلاد المغرب لتخلفها الحضاري، بينما يزدهر التعليم في مصر "أم الدنيا" كما رآها في زمانه، ويشيد ببراعة المصريين في التعليم حتى إنهم "يعلمون الحمر الإنسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال يستغرب ندورها ويعجز أهل المغرب عن فهمها."[120]

ج- وإذا كانت التربية قديماً مشت بقانونها العملي دون التزام بفكرها النظري؛ فإنها اليوم تحصد ما زرعته في تاريخها الطويل، وأصبحت التربية-وعلى الصعيد العالمي وبدرجات متفاوتة- متقدمة نظرياً ومتخلفة عملياً. ولا تزال الشكوى في حاضرنا كما كانت في ماضينا قائمة تندد بسوء التعليم.

وللحق فإن التربية مشت مع مجتمعها وفق إيقاع الحركة العامة للحياة فيه، وبقدر ما أعطاها المجتمع أعطته. وعلة المفارقة بين الفكر والعمل هي علة طبيعية في التربية، إذ من السهل أن نتصور في التعليم مثاليات رائقة يصعب تحقيقها واقعياً، لأن التحسين الكيفي لا يقف عند حد، ونهايته دائماً مفتوحة، ومكلف للغاية ومتطلباته قد يستحيل الوفاء بها على وجه الكمال. ثم إن الإنسان موضوع التربية غاية ووسيلة ليس بالمادة التي تخضع بسهولة لكل تشكيل مطلوب.

---

119 للرجوع إلى شهادات ابن حوقل (ت/ 475هـ)، والغزالي (ت/ 505هـ)، وابن الجوزي (ت/ 597هـ)، والعبدري في رحلته سنة 688هـ، والذهبي (ت/ 740هـ)، وابن خلدون (ت 808هـ)، وطاش آبري زادة (ت/ 968هـ)، انظر: د. محمود قمبر، مع التراث العربي، مرجع سابق، ص50.

120 مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص 433.